مدافن الاحياء !
شطة
مجدو
هدريم
الرملة
عوفر
عسقلان
النقب
بئر السبع
نفحة

مدفن الأحياء

مدفن الأحياء
وليد الهودلي
الطبعة الأولى ٢٠٠١
(كل الحقوق محفوظة)

دار الزاهرة للنشر والتوزيع (بيت الشعر)
رام الله - فلسطين
ص.ب: ٩٥٢
هاتف: 2406956 - فاكس 2406955
E-mail: <*pal-poetry@jrol.com*>

التنفيذ والاشراف:
المركز الثقافي الفلسطيني (بيت الشعر)

الإشراف الفني: محمد حلمي الريشة
الصف والمونتاج: ريما منى
لوحة الغلاف: للفنان اسماعيل شموط
الغلاف: نغم الحلواني

وليد الهودلي

مدفن الأحياء

شهادات من المعتقل

مرضى على وشك الرحيل

أجساد وأرواحٌ تعتصر ألماً في مستشفى الرملة - فلسطين

مقدمة

تلاشت آهات يوسف العرعيد المكبوتة ... لم تجد طريقها إلى نخوة المعتصم ولا إلى نخوة أبي جهل .. انضم إلى الركب ورحل بصمت .. شهداء قُتلوا بدم بارد على أسرّة المرض في سجون الاحتلال ... عبد القادر أبو الفحم، عمر القاسم، يحيى الناطور، حسين عبيدات، معزوز دلال، رياض عدوان، والركب طويل ... وإذا كان هناك من ينتظر الانضمام وينطوي على لهيب معاناته، فلا أقلّ من أنّ نقصَّ عليكم قبساً يسيراً من هذه المعاناة ... صحيح أنّ صفحات الجرائد كثيراً ما شهدت ذكرهم، ولكن الجديد الآن هو ندخل إلى عالمهم، ونشاركهم خلجات قلوبهم، ونتفيأ ظلال أرواحهم ... لن نثقل عليكم، سنعودهم بصحبتكم، ففي عيادة المريض أجر ومن السنّة أنّ تكون عيادة المريض قصيرة ....

وليد الهودلي

١٩٩٩/٥/٢٧

أبو الحسن أبو هدوان: "الشيخ المحتسب"

أخيراً، وبعد مسيرة طويلة ومُضنية، وصلت إلى مستشـــفى الرملة .. قطعتُ هذه المسيرة في ثمانية شهور .. المسافة بين عســـقلان والرمّلة ستون كيلومتراً، ولكنها تحتاج إلى هذا الزحف الســـلحفائي المميت .. تحتاج إلى مراجعات عديدة لطبيب السجن، وبعد صـــراعٍ طويل، هادئ ودبلوماسي وصاخب وضاغط .. يُكتـــب التحويـــل لإجراء الفحص اللازم، فهذا الطبيب لا يستجيب قلمه إلا للمـــريض اللَّحوح الذي يضغط عليه مرضه، ويوعزه إلى هذا النضال الطويل .. يضع الطبيب ورقة التحويل في أدراجه الباردة كي تدخل مرحلة حجز الدّور، لا أريد أنّ أطيل عليكم وأَتِيْهُ بكم في التفصيلات المملّة، فأنـــا مرضي بسيط، والفحص المُزمع على تشييد صـــرحه ســـهل .. فمـــا يعمل في العالم الخارجي في يوم واحد، يحتاج إلى هذه المراحل العسيرة، وهذا الوقت المديد أطال الله في عمره .. المهم ما رأيته في المستشفى مع أصحاب الأمراض الصعبة .. الأرواح التي تنتظر ملك الموت بفـــارغ

الصبر، وتشعر أنه على وشك الأخذ بيدها والرّحيل من وسط هـــذه الأدغال التي تناوشته فيها وحوشها ...

كان أوّل ولوجي المستشفى الصغير مع "أبو حسن" محمد أبو هدوان.. نزلت في غرفته، أخذني بالأحضان وعينـــاه تلمـــع خلـــف دموعها .. وقفت صورته منذ أوّل معرفته به شاخصةً خلف شـــبحه اليوم .. كانت الصورة الأولى لشخص آخر .. رجل ممتلئ الجسم .. رحب مشرق يفيض حيوية وقوّة .. لعينيه نور مميّز .. يَفرض الهيبـــة والجلال .. تخترق حواجز الأجساد وتعمل في القلوب عملها .. صوت جهوري له رنّةٌ موسيقيةٌ عاليةٌ تهتزّ لها المشاعر .. تجد فيه للوهلة الأولى النخوة والأصالة، الإباء وعزة النفس .. وكل هذا لم يمنعـــه مـــن أنّ يرطب القلوب بما لذّ وطاب من النكات والتعليقـــات الـــتي تســـر الحاضرين .. أما صورة اليوم فقد ذوت في شحوبها .. هدّها المـــرض ولم يترك سوى آثار باهتة لا يجد بصيصها إلا أصحاب القلوب المرهفة .. أنفاس تتلاحق بسرعة .. قلب يرتجف، ترتجف معه الكلمـــات .. تخرج ضعيفة رغم ما فيها من رحمة وحنان .. ذرت الرياح شعر الرأس واشتعل شعر اللحية شيباً .. غابت حيويته وسكنت حركته .. أصبح كالرسم الذي يعاد بالتصوير البطيء ..

جلست على حافة سريره .. وجّهت له علامات استفهامي..

- كيف الحال "أبو الحسن"؟ ..
- حالي كما ترى .. الحمد لله على كل حال ..
- تذكر أيامنا "أبو الحسن" سنة ٩٢ .. في عسقلان؟
- الله يرحم تلك الأيام .. أيام كانت الأمراض بعيدة عني ..

كان في سريره وكأَن صخرة كبيرة تربض على صـــدره .. يتفلّت من ثقلها .. يجد راحة في الحديث عن آلامه خاصة مع أصحابه القدامى .. القابعين معه في هذا المستشفى المعزول .. ملّوا الحـــديث لبعضهم البعض عن أوجاعهم .. ما أن يحل بهم ضيف إلا ويبثّون شيئاً مما يعتمل في صدورهم .. تعمّدت إدارة السجن وضع هذا المستشفى في ظروف قاسية .. فتضيف آلاماً جديدة إلى آلامهم .. آليّة العمـــل تصعِّد الأوضاع النفسية الصعبة للأسير .. فإذا كان الطب الحـــديث تنسجم فيه الأبعاد النفسية مع العضوية فإن هؤلاء يكرّسون الانفصام التام .. ضغط نفسي مع علاج عضوي .. مركّب صعب تعضُّ عليه إدارة السجن بالنواجذ .. كيف يعقل مثلاً أن تجري عمليـــة قلـــب مفتوح لمسنّ جاوز الستين وأرجله مقيّدة بالسرير إضافة إلى الحراســـة المسلّحة.. أي طب مجنون هذا؟! قال لي أبو حسن منفعلاً عندما سألته عن العناية الطبية ..

- خذ هذه القصة التي حدثت معي .. أخرج دفتراً، قلّب أوراقه بسرعة .. سأعطيك التاريخ بالضبط .. في ٩٨/٤/١٤ تعرّضت لنوبة قلبية حادّة .. حولوني إلى مستشفى برزلاي / عسقلان .. كان معي أربعة حراس بأسلحتهم الرشاشة .. أفقت من إغمائي .. نظرت إلى الساعة فإذا بموعد صلاة المغرب يقترب .. تذكّرتُ أني لم أُصَلِّ العصر.. طلبت منهم فكّ قيدي حتى أتوضأ وأصلي .. رفضوا بشدة.. أخذوني إلى دورة المياه وأنا مقيّد اليدين والرجلين .. قلت لهم بلغتهم:

- كيف أتمكن من الاستنجاء؟! كيف أقضي حاجتي؟! ردّوا بكلمتهم اللئيمة التي لا يعرفون غيرها .. ممنوع . تيمّمت وأردت الصلاة واقفاً فرفضوا .. لم أتمكن من الصلاة إلا وأنا مستلقٍ على ظهري .. مربوط بسريري من اليدين والرجّلين .. أتصدّق أنّ كل هذا خوفاً من أن أهرب؟! .. كيف سيهرب كهل في الستين من عمره ونوبة قلبيه تُفتِّت شرايين صدره؟ .. كانت وخزات تدقُّ نصالها في وسط صدري فتنتشر بسرعة إلى كافة ذرات جسمي .. كانت كصخرة صلدة تُلقى في بركة ماء .. تتناثر شظايا الماء وتنتشر أمواج الألم حتى تصل إلى أطراف البركة . أنا لا أصدّق أنّ هذا اللؤم كي لا أتمكن من الهرب .. إنه ضغط نفسي مدروس وممنهج .. يطالعك حقدهم دوماً في كل لحظة ويقول لك: لا تَنْسَ أنك سجين وأنا سجانك هنا واقفٌ على

رأسك .. قلت لهم: أنتم أربعة أصحّاء وما شاء الله عليكم .. اسحبوا أسلحتكم ورشاشاتكم واتركوني أصلّي لله رب العالمين، ربي وربكم.. إذا تحركت غير حركات الصلاة فلا تتوانوا بإطلاق النّار علي .. "ممنوع، قلنالك ممنوع" .. أنا لا أردي كيف سينفع الدواء مع السجّان؟ .. كيف يداوي الذئب الحمل؟ .. يقولون في الطبّ إنّ الراحة النفسية ضرورية للمريض .. أنا لا أطالب براحة نفسية لأنّ هذا يستحيل تحقيقه وروح الأسير تحسّ بوخزات الأسلاك الشائكة كُلّما سافرت بأحلامها أو عادت من سفرها .. أنا أطالب فقط بوقف عملية التحطيم النفسي وتقديم العلاج المطلوب ..

وقفتُ معه وقفة طويلة مع العلاج والإهمال الطبي المقصود . كان يشدد على كلمة المقصود، تدفعها النصال التي غرست في رمال صحته المتحركة .. كان يُبديها كراهية سوداء يرفعها عالياً كي لا تغيب عنّا.. كنت أستعيد ذكريات ضحايا هذا الاهمال .. وحتى الكثير من الأسرى الأصحّاء واجهوا هذه الحقيقية .. كان أحد الأطباء الأذكياء لسنوات طويلة يعالج بأحد أمرين .. "الأكمول" أو الماء .. علاج سحري لا يخطئ أبداً .. كانت طبيبة أسنان تنقضّ على فريستها كوحش كاسر .. لا تعرف إلا القلع والضرب على الأسنان بيد من حديد .. "يحيى الناطور"، رحمة الله، غرق في آلامه عدة شهور من غير

أن يصلوا إلى التشخيص الدقيق للمرض، والأخطر من هذا أنهم قالوا بأن مرضه نفسي .. "إشرب ماء" .

وضع أبو حسين دواءه في كفّه .. وعدَّ لي مـــا يزيـــد عـــن العشرة أنواع:

- هذه مسكّنات، وهذه لتوسيع شرايين القلب، وهذا للتنفس .. منذ ثلاثة عشر شهراً وأنا أبلع من هذه السموم .. طلبت تقريـــراً طبيـــاً فجاءني ليبشرني بابتلاءاتي .. وبعيداً عن التعقيد ألخّصها لك .. القلب بحاجة إلى أُفرهول .. تعرضت إلى جلطة سنة ٩٦، اتساع كـــبير في حجرة القلب اليسرى، إمالة حادة وتصلب في الشرايين .. منذ فتـــرة طويلة وأنا أنتظر عملية القلب المفتوح فتح الله قُبورهم .

وعندي يا سيدي العزيز تليّف في الكبد .. وفشل كلـــوي جزئي وسكّري .. يكفيك هذا أم تريد المزيد .. الالتـــهاب الرئـــوي أعاذك الله منه .. لا أستطيع الاستغناء عن جهاز التنفس الكهربائي .. قل الله يعفيك يا "أبو حسن" .

قلت له بعد أن فاجأتني هذه الكوارث ..

- ولكن هكذا داهمتك كل هذه الأمراض دفعة واحدة ..

ندّت عنه آهة عميقة وقال:

- لو كانت المتابعة الطبية جيدة أو مقبولة لما تدهورت صحتي بهـــذا الشكل .

أذكر أنني أصبت في سجن نفحة في العام ٨٩ بالتهاب كلوي حادّ، وعولجت بشكل أفضل من هذه الأيام .. ولكنهم فيما بعد أهملوا الأمر .

أثقلت على صدري هذه الكُربات .. انقبضتُ بمجرّد سماعها، فكيف بمن يعاني منها وتنفجر آلامها في جسمه ليل نهار؟! .. نظرت في دفتره .. وجدت به باباً للهروب قليلاً من قراقع ضربات المـــوت الذي رأيت يده وهي تلتفّ على عنق هذا الرجل .. تنتظر الأمر لوقف هذه الأنفاس الطاهرة .. (ولكلّ أجل كتاب) .. قلت له ..

- ماذا في هذا الدفتر؟ ..

ابتسم لي ابتسامة واسعة ملأت حنايا قلبي .. رأيت في عينيه أنه فهم ماذا أريد .. قال في نفسه .. "لا بأس هؤلاء الشباب تذهلهم أوضاعنا الصحية، ونحن وللحق أقول تنشرح صدورنا عندما نجد الأذن التي نفرغ فيها شيئاً من همومنا .. ولا بأس بـــذكر بعـــض الأمجـــاد الغابرة".. أسند ظهره وأخذ يقلب أوراق دفتره .. لمحت بعـــض مـــا كتب فيه .. محمد حسن أبو هدوان .. الحكم مؤبـــد علـــى خلفيـــة عمليات عسكرية .. تاريخ الاعتقال سنة ٨٥ .. مَضَتْ أربعة عشـــر

عاماً .. لاحظ قراءتي فأخذ يقلّبها ببطء .. خمس بنات وثلاثة أولاد.. الأولاد تزوّجوا والبنات إلا واحدة .. وضعت يدي على يده لأوقف سيره السريع في عالم ذكرياته .. سألت:

- كلهم تزوجوا وأنت في السجن؟!

- نعم وأنا على "برشي" .. تصورت حفلاتهم في خيالي ..

- إلا واحدة .. أكيد هي آخر العنقود ..

- لا إنها ابنتي الكبيرة .. حرّمت على نفسها الزواج مـــا دمـــت في الأسر..

- ولكن هذا مخالف لسنّة الحياة ..

- أصرّت على هذا .. إنها متعلقة بي منذ صغرها .. حبها لي طغـــى على كل شيء في حياتها .. تحبّني حب يعقوب ليوســـف .. حبســـة قطعت أوصال أعزّ الروابط .. أمي رحمها الله كان أملي في هذه الحياة أن أحظى بوداعها الأخير .. زارتني في سنة ٩٣ زيـــارة خاصـــة .. جثوت على أقدامها أقبلها وأبكي ..

أوقفته إلى موضوع آخر عندما رأيت الدموع في عينيه ..

- وماذا في الدفتر عن هذه الذكريات الأليمة؟ ..

- فيه كل شيء .. حتى النوادر البسيطة والقهقهات العابرة .. طيلـــة الحبسة وأنا أكتب .. وعلى فكرة ليس هذا الدفتر الوحيد ..

- ما هذا؟! .. حبة أسكدنيا بعد أربعة عشر عاماً .. أكلت حبّة تين ورمانة بعد ثلاثة عشر عاماً .. كوز صبر .. ٢٥ رأساً حلقتها في ثلاث ساعات ٩٣/٣/٢٥ رقم قياسي ..

- ما زلت أذكر حلقاتك يا "أبو حسن" .. وما زال شذى عطرك يروي شعر رأسي .. أَسأل الله أن يفك أسرك ويعيدك إلى أحفادك حتى تحلق لهم ..

- صدقني أن كل أملي قبل كل شيء أن أصلي ركعتين في المسجد الأقصى .. فكما ترى أنا في العقد السادس من عمري .. "أكرمني" الله بكل هذه الأمراض .. أحمد الله وأشكره وأسأل الله القبول وأن يضعها في ميزان حسناتي .. والأعمار بيد الله .

- وأولاد الأولاد .. وما أعز من الولد إلا ولد الولد .. يا "أبو حسن".

- لا يوجد ما هو بعيد على الكريم .. يا سلام لو أتمكن من طباعة قبلة على جبين أبنائي وبناتي .. الله كريم .. أتصوّر نفسي وقد رفعني أولادي على بساط أحد بيوتهم، وجمعوا لي كافة أحفادي، لقد بلغو الآن سبعة عشر حفيداً أريد أن يحيطونني إحاطة السوار بالمعصم، وأن يطبقوا عليّ بأنفاسهم ..

- الصغار دوشه يا "أبو حسن" ..

- خلّيهم يلعبوا فوق رأسي ويفتحوا طاقة في "نافوخي"، ساعتها أقوم مثل الحصان .

-نسيت شريكة حياتك .. أين ذهبت أم حسن ..

- آه .. آه .. إنها تاج رأسي، ولا يمكن أن أنسى فضلها الذي أحاطتني به طيلة حياتها معي .. إنها ينابيع حبنا جميعاً أنا وأولادي وأحفادي .. أريد أن أقتعد مكاناً بينهم ولو للحظة واحدة قبل أقتعد نعشي على أكتافهم ..

- ربنا كريم يا "أبو حسن" ..

- ولا أنس قبل كل شيء، لا يملأ عليّ قلبي إلا أن أخرّ ساجداً في رحاب المسجد الأقصى .. سجدة أذوب فيها في ميدان عشقي لله وأذوِّب فيها قهر هذه السجون الظالم أهلها ..

- اللهم آمين .. اللهم آمين .

١٩٩٩/٤/٢٠

عمر الخطيب: "المشــعوذة"

كانت رحلة عظيمة .. كأنها جرت من عالم الأمــوات إلى عالم الأحياء.. ورغم ما فيها من قسوة ومرارة فلقد كان لها حلاوة لا أزال أجدها في قلبي .. كلما تذكّرت تلك الرحلة غبــت في آفاقهــا الواسعة وآمادها البعيدة .. فأخرج مما أنا فيه بلا استئذان .. أغيب عن كل شيء مستذكراً آثارها الدائمة .. أقــذف نفســي في أحضــانها الجميلة.. أنطلق بمشاهدها الخلاّبة وأذوب في فتنتها بلا ضوابط ..

مسافة هذه الرحلة لا تزيد عن خمسة كيلومترات ولا تسرق من الوقت سوى ربع ساعة .. وفي نفس الوقت أعترف أنها سرقت من وقتي ولا تزال تسرق عشرات بل مئات السّاعات..

لبست في هذه الرحلة القصيرة / الطويلــة لبــاس رجــال الفضاء.. فسخاء الطبيعة وزخم المشاهد المتسارعة على بوابــة قلــبي تحتاج إلى الأكسجين الذي يكفي لتحميض هذه الصّورة .. لــذلك فإنهم وصّلوني بجرّة اكسجين عاتية ضموها للوفد المرافق لي ..

وبعد أن اجتاحتني الصورة المخيفة في مشـــعوذة الســـجن / "العيادة" التي أمضيت فيها أربعة عشر يوماً وأنا أتقلّب بين مشاهدها المرعبة .. كنت حبيس غرفة مظلمة .. رطبة، مكتظة بالروائح العفنة.. تشمُّ منها رائحة الموت .. تُطبق على أنفاسي من كل جوانبها .. الهواء راكد، ساكن لا حياة فيه .. الباب مغلق والشباك مفقـــود .. فتحـــة صغيرة في الباب .. تفتح وتغلق كلما أرادوا أن يتفقّدوا أرواح هـــذا الجسد .. إن كانت لا تزال متعلقة أم صعدت إلى بارئها في السماء .. كانت قبراً يوضع فيه الأحياء .. حالة من الضّياع .. رماديّـــة اللـــون وتستطيع أن تقول لا لون لها .. ماذا سيجري لك في هـــذه الغرفـــة السحيقة .. فالداخل فيها مفقود والخارج منها مولود، هذا إن قُدِّر له الخروج .

حظر تجول طويل فرضـــته "المشـــعوذة" علـــى حركـــاتي وسكناتي.. وذاك النطاس البارع استأصلني من السجن كما يستأصل الزائدة الدودية ثم ألقى بي في أدغال طِبّه الأسود .. كنـــت في حالـــة صعبة داهمني ضيق النفس فأفرغَ صدري من الهواء وجعلني كمن يغرق تحت الماء .. كان الطبيب لي بالمرصاد .. أحـــاطني بعنايتـــه الفائقـــة فوضعني تحت الاشراف المباشر، بعيداً عن الشمس وبعيداُ عن أعـــين الحسّاد ..

تمنيت العودة إلى غرفتي في السجن .. وجدت أنه أرحم من هذه الحجرة اللّعينة القابعة في طرف هذه "المشعوذة" .. وقّعت علـــى أوراق الخروج من "مدفن" العيادة على مسؤوليتي الخاصة فموتي عند أخوة النضال ورفاق الأسر أفضل ألف مرة من كل لحظة موت أعيشها حبيساً في ما يسمى بالعيادة عند هؤلاء المشعوذين المهرة ..

لم يقدّر لي العودة إلى السجن، فبعد خروجي من المدفن وأنا أُناور الطبيب الذي بدى كرئيس كهنة، داهمتني أمواج هوائية باردة .. نفث المكيف المعلّق فوق رأسه هواءه الثقيل .. فملأ صدري الخاوي .. شعرت وكأن معركة حمي وطيسها بين الهواء المتعفن الذي إحتل مواقع استراتيجية أثناء وجودي في تلك الغرفة اللّعينة، وبسبب الهواء الجديد الذي حاول السيطرة على الموقف وفرض نفسه بالقوة .. لم تحتمـــل أرض المعركة هذا الصراع، فلم أستطع الصمود شعرت بالاختناق .. تكوّمت على بعضي وسقطت على الأرض كتلة لحم زرقاء تصرخ من شدة الألم .. أطلقت آخر صيحاتي قبل أن أفقد الوعي وكأني أُعلـــن نهاية آخر مشهد من مسرحية حياتي .. لا أدري كم مضى من مـــن الوقت .. أتذكر أن صوراً جاءتني تتراكض .. رأيت أمي، أبي، أخي، وأخواتي .. وكأني في حالة وداع نحو عالم مجهول .. ثم رأيت الأشباح من حولي .. فيما حفنة الكهنة يهيئـــون رجـــل الفضـــاء .. أنبوبـــة

الأكسجين .. إبر وبرابيش .. شعرت عندها وكأني على سطح القمر أفقد الأكسجين .. أتابع أنفاسي بسرعة وأبذل الكثير لأحصل علـــى القليل ..

حملوني إلى سيارة الأسعاف بعد أن قيّدوا يدي ورجلـــي .. هناك خوف من حالة إنعدام الجاذبية على سطح القمر فأطير من بـــين أيديهم .. وكما قلت فقد زودوني بما يلزم لتحميض الصور .. إنهـــا فرصتي العظيمة لاسترق النظر ..

إنها المرة الأولى التي أخرج بها من السجن منذ ثماني سنوات .. تناسيت آلامي وتعاليت على جراحي .. رفعت عيني أنظر .. التقطت الصورة الأولى ورحت أصول وأجول في عالمها ..

كانت الصورة الأولى: عمليـــة ولادة قيصـــرية .. صـــورة خروجي من رحم الغول الذي سأعود إليه ثانيةً .. متى يكون الخروج الأخير؟ .. الله كريم!! هنا سيقف الأهل بجانب ســـيارتهم لاســـتقبال إبنهم بعد خمس وعشرين سنة وقد يريد الله أمراً آخر .. هناك أمـــي تنتظر الساعات الطوال لزيادة فلذة كبدها .. أنا، لقد أشعلت حبستي الشيب في رأسها.. كم دمعة نزلت وهي تشكو ربها ظلـــم هـــؤلاء الأوغاد وهم يتفنّنون في وضع العراقيل .. وفرض شروط مذلّة ترضخ لها أمي ويطأطئ لها أبي رأسه كي يحظوا برؤية إبنهم ..

رفعت عيني .. نزعتها عن الصورة الأولى والتقطت الثانية:

شارع متحرك .. سيارات تسابق بعضها بعضا في سباق مجنون .. حياة متحركة على العكس تماماً من حياة السجن الراكدة، رجال يقودون تلك السيارات يختلفون عنّا .. لهم أشكال جديدة .. ذقون ناعمة وشعر أملس كشعر النساء في ألبسة مضحكة ثمة بقع صفراء وخضراء تتوزع على قمصانهم .. يضعون نظارات دقيقة كأنها خططت على العين بقلم رفيع .. هل هم في "فورة" حوَل الدّوار؟! إنهم يدورون كما ندور في السجن .. لكن أحدهم يدور دورة واحدة ثم يمضي مسرعاً في أحد الخطوط المتفرّعة .. أما نحن فندور وندور كالبرغي الذي أغمي سنّه .. "البايز"

رفعت عيني وسحبت صورة ثالثة .. حدائق من الورد الأحمر والنبت الأخضر لا أدري ما هو اسمه ..

إنه مدخل مدينة عسقلان .. زيَّنوه بالورد .. لا بد وأنّ هذا الأحمر القاني قد سقوه من دمائنا .. أما ذاك الأخضر القاتم فإنهم أشبعوه من الهواء الذي صادروه من صدورنا ..

كل شيء يتنفس .. ترفع الأشجار أعناقها عالية وتتنفس .. ينفثون عليها دخان سياراتهم ولا تأبه بهم .. تماماً كما يفعلون بنا ..

يضربوننا بقنابل الغاز .. ولا نتأثر، تبقى أنوفنا شامخة، نموت واقفين ولن نركع..

اعترف الآن أنهم، بعد تراكم وتكدس نتائج هجماتهم الغازية أو النازية على الأجساد الجيد في ذاك العالم الضيّق بعد أنّ وقعت فريسة للضعف الجسدي رغم بقاء الروح شامخة محافظة على مكانتها السّامقة ..

قد تذبل بعض تلك النباتات الطيبة كالتي رأيتها على حافة مصبّ مداخن تلك الدواب التي تمشي على عجلات ..

كانت بداية مرضي هذا إثر تعرضنا في سجن عسقلان إلى حملة قمع همجية سنة ١٩٩٢ .. هذا العام الذي انفجر فيه السجن غضباً وألماً كانفجار قنبلة .. بعد أنّ ضغطوه بسياسات قمعية .. سياسات سحق واستهداف واذلال .. عندئذ فتحوا "خراطيم" عبوات الغاز المسيل للدموع والمذهل للأعصاب .. احدث ما وصلت إليه عقول الاجرام .. كانت فيها كثافة الدخان تفصلك عن كل شيء حولك فلا ترى أبعد من أنفك .. سجينا في سماء بيضاء من الدخان والغيوم .. كنّا فقدنا أعصابنا وجثونا تحت الأبراش ساجدين .. سجد معنا شعار نموت واقفين ولن نركع .. دوخته كثافة الغاز التي لا ترحم.. كان هذا اليوم بداية الشيخوخة المبكرة التي غزت رئتاي ..

خطفت صورة رابعة .. ندَّت مني إبتسامة عندما رأيت سيارة وقد انطفأ محركها وتجمع عليها الناس يدفشوها علَّها تشتغل من جديد.. تذكرت أول سيارة اشتراها أبي.. غشّوه فكانت لا تشتغل إلا بالدفش و "التعشيق".. حتى هذه السيارة انقطع نفسها.. تذكرت حالي بالأمس وحالي اليوم.. حال هذه السيارة الحديثة التي تنطلق بخفَّه ورشاقة وأين هذه السيارة التي ينتظر الناس سماع "جعيرها" بعد أن قُطعت أنفاسها كان لي جسداً يناطح السحاب بهمة وعنفوان تشهد لها ساحات التدريب.. كنت قد اكتنزت من القدرات القتالية ما يجعلني من أوائل الصفوف.. استيقظ في الصباح الباكر وأبدأ يومي بنشاط جذّاب.. أحث بنشاطي غيري من الشباب.. كنت بمثابة الدينمو الذي يمدّ الآخرين بالهمّة والحيوية.. أقودهم إلى الساحة حيث تدريب الكاراتيه وألعاب القوى المتنوعة.. أما اليوم فها أنا كتلك السيارات.. "اللي بحب النبي يزق" ..

كهلٌ أنا الآن رغم أني مازلت في بداية شبابي.. روحي الشابة التي لا تزال بفضل الله أحتفظ بها لا تقدر على تحمل أكثر من تلك الأربع وخمسين كيلو غراماً مما تبقّى من لحم وعظم..

بداية تراجع جسدي كانت عندما شعرتُ بالتعب في الدقائق الأولى للساعة الرياضية الصباحية.. كنت أتحامل على نفسي وأُجبرها

على الاحتفاظ بالمكان المتقدِّم من الطابور.. تضعضعت أنفاسي.. تراجعت "مكرها أخاك لا بطل".. صفاً وراء صف إلى أن بت محسوباً على طابور "الديتّا" طابور فرعي للركض لذوي القدرات المحدودة تحت قيادة أحد كبار السن.. لم أكن أُعير الأمر أي اهتمام جدّي.. بتواضع شديد ورغم قساوة الأمر تراجع نشاطي الرياضي.. برَّرت لنفسي هذا التباطؤ.. رطوبة جدران السجن المستنقع الصناعي الذي أُغرقنا فيه وكذلك التغذية السيئة التي نتلقَّاها باتت تترك أثراً في أجسامنا ..

أفقت من صورة السيارة المقطوعة الأنفاس وخطفت أخرى.. دخلنا شارع المستشفى المطلوب.. يا للهول.. رأيت نهاية الشارع على مرمى البصر؟؟ رأيت البحر.. من بعيد رأيت زرقته الصافية.. الأمواج التي تتكسَّر في حضن الشاطئ الدفيء.. تأتيه راقصة كطفل مدلَّل.. تحنى عنقها وتستلقي في حناياه.. تحلِّف وراءها عناء سفرها الطويل وتنام نومة هانئة.. لا شك أنها تتنفس الصعداء.. تملأ رئتها لتعود رحلتها من جديد.. أيستطيع هذا المستشفى أنّ يملأ رئتي من جديد؟! هواء البحر يملأ فناء الفضاء الرحب الفسيح.. ولكنهم هناك وعلى مسافة قصيرة يصادرونه.. يحشرون الناس في الغرف الضيقة..

وقفت السيارة على باب المستشفى.. حملوني عبر ممر محفوف بالشجر.. وأيُّ شجر.. وجدت نفسي غارقاً في الصور.. الأشـــجار الجميلة ألقت بضياء عيونها على هذا الجسد الصريع.. سمعت بفطرتها السليمة حشرجة صدري.. ربما ظلمتها فقاعات الهواء الفاسد الـــذي يخرج من فمي.. ربما أدركت ما أُعاني منه فانهالت عليَّ ببعض هوائها الطاهر.. رددت عليها تحيتها بابتسامة متواضعة.. رأيت فيها الحرية التي شعرت بأنها أصبحت بعيدة المنال... أصبحت أشعر بأن الموت أقـــرب اليَّ من حبل الوريد...

ما هذا الشجر الذي لم أَره من قبل.. شجر زمان مـــا قبـــل الحبسه.. زيتون، تين، لوز، كله شجر مبارك ولكن هـــذا يختلـــف.. شجر يناجي الروح ويُعمل سحره بسرعة... صفحات مـــن الـــورق الأخضر المدبَّب.. تصطف الرزمة منها بشكل أفقي.. تجتمع المجموعه وكأنها حول مائدة.. وتنتصف هذه المائدة وردةٌ حمراء تقـــف مغنيَّـــة وسط هذا الحشد الأخضر.. تسمع وتشم رائحة هذا الفناء.. ما اسم هذا الشجر؟! من أين أتوا به؟! إنّ تخيل شجرة واحدة وسط ســـاحة السِّجن كفيل بمداواة جروحنا.. كانت نخلة تناجينا ونناجيها فقطعوها قطع الله أعناقهم..

سلط الناس كاميرات قلوبهم على هذا الجسد المكبّل.. عفواً رائد الفضاء الذي يخشى عليه من انعدام الجاذبية وانطلاقه في الفضاء بلا حدود؟؟ ماذا تراهم يقولون؟! سجين عربي!! اذن مخرِّب، تحضره شرطة السجن للعلاج.. يقولون بما اننا دولة متحضرَّة.. لماذا يكبِّلونه بهذا الشكل القاسي؟! ويقولون: كل دول العالم تفعل هذا.. ضروريات أمنيه.. شرطة غلاظ شداد.. قلوب لا ترحم ..

فتيات ونساء جميلات. شبه عاريات؟ يتنفَّسن الهواء بسهولة ويُسر.. يتنططن على الأرض.. أجسام صغيره، بيضاء غضَّة، طرية، يستنشقن جمال الطبيعة.. نساؤنا أكبر حجماً وأقل حركة.. أقوى سمتاً وأثقل رجلاً.. يمتطين الأرض وكأنَّهم جُبلن فيها.. ماركة مسجلة وليست مزيَّفة كهؤلاء.. فتاة تمشي وتتكلم مع نفسها.. أمعنت النظر.. وجدتها تحمل على أُذنها قطعه بلاستيك صغيرة.. هذه التي يقولون عنها "بلفون"؟!

شقوا بي الطريق عبر أروقة المستشفى.. كلما أدخل ساحة تتلقَّفني العيون تماماً كما يحدث لبطل فيلم سينمائي .. أرمقهم بنظراتي الخابية.. واشعر بالضَبطة.. أصبحتُ محط أنظار الناس خاصة الأطفال.. الصغار جداً.. منذ فترة طويلة لم أر هذه الكائنات الصغيرة..

رأس صغير كحبة الرَّمان.. عيون قطط زرقاء وخضـــراء.. البراءة تضيء جنبات وجداني.. تمنيت لو أنَّ صحتي معي ويتاح لي ولو لمرة واحدة أَن أقبل طفلاً وأمرِّر راحة يدي على رأسه الصـــغير.. لا يوجد أَيَّة حالة عداء بيني وبين هؤلاء.. عداؤنا مع آلة الإجرام الحاقدة التي تنهش أجسادنا وأعراضنا ليل نهار..

كبَّلوني بسرير الشفاء.. يعني لو كتب الله لي الشفاء فسيكون شفاءاً مكبلاً.. دخلت معترك العلاجات والفحوصات ست ساعات متواصلة كانت روحي ترفرف فوق سريري، تتردد ما بـــين المـــوت والحياة. كانت نظراتي التي أَلتقطها خِلسة نظرات مودِّع. أمدّ الله في عمري.. عدت ثانية حتى اذا استيأسوا من تحسِّن حالتي شـــحنوني إلى مستشفى الرملة. هذا القسم المميَّز بتفانيه في تحقيق أفضـــل شـــروط الإقامة في قبر جماعي، تعمر أسرَّته بأجساد أنهكها الأمـــر والقهـــر.. حالات مرضيه منسيَّة خلف القضبان.. تبوَّأت موقعي بين بقايا اللحم والعظم من خيرة أبناء شعبنا.. يودِّع أحدهم الآخر كل ليلة خوفـــاً، يتبادلون نظرات الوداع الأخير.. في هذا المنفى تموت كـــل لحظـــه.. تموت من كثرة ما ينسونك.. من روتين الحياة، من الضغط النفســـي وانعدام العلاج المناسب.. القهر والمرض يلتهمك ببطئ.. قطـــرة وراء قطره أشق على النفس من بذل التَّضحية دُفعة واحدة .

والآن وبعد هذه التجربة المديدة على مدار خمس سنوات بعد رحلتي الأولى إلى مستشفى عسقلان لم يتبــق في صــحبتي ســوى ذكريات، جهاز تنفسي كهربائي يبث في صدري همومه الخفيفة أحياناً والثقيلة أحياناً أخرى.. جرَّة من الاكسجين أتخيَّلها أحياناً كبرميــل بارود يوشك على الإنفجار.. بخاخات تطلق شــهيقها الطــريّ في محاولات يائسه لمحو آثار سحب الغاز السام الذي استوطن هضــاب صدري العالية، تماماً كما هي حال مســتوطنات أصــحاب شَــعْرِ السوالف الطويلة والقبَّعات السوداء..

زجاجات الدواء والأقراص التي أتجرع سمومها في الصــباح والمساء.. هي حصيلة ما أهدتني إيّاه سنون المرض حتى الآن إلى جانب العجز الرئوي وصعوبة التنقل من مكان لآخر مهما كانت المسافات قصيرة..

إنَّ ما يميز شريط ذاكرتي بعد هذه الرحلة الطويلة في أســر المرض وأسر السَّجان، هو أني أستطيع أن ألمح بوضوح إرادتي القويّــة التي بقيت على حالها.. لم تنثن و لم تتكسَّر أمام هذه العواصف العاتية.. بقيت على حالي أسيراً صاحب رسالة مميَّزة من الكفاح تتطلّب عمقاً في التميّز في الأداء والمواجهة، وعندما أضفتُ بعداً آخر وأصــبحت أسيراً ومريضاً في نفس الوقت.. حمّلت رسالتي الكفاحية بعداً آخر،

فَزْدت تميُّزاً على تميّزي.. شعرت بالتَّحدي في أعلى درجاته.. كان عليَّ أن أبتعد بقوة عن صفوف الضَّعف أمام اختيار المواجهة؛ لأنّ في ذلك ميلاً لصالح برنامج العدوّ النقيض .

عندما تشابكت مهمات عملي النضالي بمهمات ما أحتاجه من رعاية علاجية ضاعفت مستلزمات نهوضي وحضوري بواقع الأسر... لم تطق نفسي التنازل عن أيّ شيء كنت ملتزماً به قبل مرضي.. حتى الجامعة المفتوحة حافظت على التزامي بها رغم ما تحتاجه إلى جهود مُضنيَة.. لم أتنازل عن شيء سوى الرياضة التي لم يَعد جسمي يتحملّها على الإطلاق.. كنت أنظر من نافذة غرفتي على ساحة الرياضة كأسد قعدت به شيخوخته عن المشاركة في رحلة الصّيد والسعي في مناكب الأرض .

حافظتُ على برنامجي الذي رسمته أَول الحبسة.. وإذا كانت الإرادة لا تعرف أي حدود فعلى ما يبدو، فإن الجسد الذي هو الامتداد المادي للروح وما تحمله من قيم يعرف معنى الحدود... يتراجع أمام تدّني إمكانيات مواجهتك للبرنامج المادي والمعنوي المدمِّر الذي يريده لك عدوك... قد تجد نفسك أمام تراكم هجماته الشرسة فريسة للضعف الجسدي ورهينة للتناقض الذي يضع قاتلك في ثوب الملاك الذي يسعى لشفائك وضمان أمنك الصحي... هذا التناقض الذي ربما

لَن تلحظه إلاّ بعد تقدمك في الاعتقال حينما ترى الرِّسالة الانسـانية تُدنَّس يوم ترى الممرِّض والطبيب يتمترس خلف مدفع غـاز خـانق يوجّهه نحو صدرك .

ياسر المؤذن: "واحة الديمقراطية"

أنا لست "رون أراد".. أنا ياسر المؤذن أسير سوري عند "جهة معروفة"؛ "واحة الديمقراطية"، صورة العالم الحرّ والمتحضر في المنطقة"!! أظهرت "إسرائيل" نفسها على أنها ضحيّة الإرهاب، وأن دماء إنسانيتها قد سفكها سيف أعداء الإنسانية.. إنها مسكينة، مقهورة، مظلومة، مستباحٌ فيها مواطنها الذي لا يعرف إلا السّلام والعيش بأمان.. تمدّ اليد وغصن الزيتون للأيدي التي تريد لها الدمار والهلاك!!

وتقول: كان "رون أراد" في نزهة سياحية في سماء الله الواسعة فضلّ الطريق ومرَّ في سماء الجنوب اللبناني، سقطت طائرة السلام، ووقع "الطائر الميمون" في الأسر.. لغاية الآن، الجهة الآسرة مجهولة الهوية، أصبح "رون المبكى الجديد" الذي تُذرف عليه الدموع.. يثيرون قضيته في كل المحافل الدولية.. يطالبون به في كل اللقاءات السياسية يجيون ذكراه، تجوب أسراب الطائرات العسكرية السماء.. يُرسل إليه

صقور الجو تحيّاهما، تعلو الأصوات وتهتف الحناجر باسمه، تعرض أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة الأبعاد الإنسانية لابنته وهي ترسم وتكتب رسالة إلى "بابا" .. زوجته التي يقتلها الأسى والحنين، أمه وأبيه وقلوبهم المقطعة على ولدهم الحبيب ... هذه هي الدولة التي تظهر حسّها الإنساني المرهف تجاه أسيرها الغائب، ولكننا نجدها تُغيّب هذا الحس تماماً، تظهر بوجهها المظلم، تلقي من السماء كسف العذاب والجحيم على رؤوس الناس في القرى والمخيمات، كما ألقت ما ألقت على "قانا" وغيرها نجدها تلقي ويلاتها أيضاً على أسرانا في سجونها ...

أنا واحد منهم .. سمحوا لي!! بإحساسهم الإنساني النبيل!! بالاتصال التلفوني، لا أريد استثارة العواطف، ما أريده فقط هو أن نتحسس "إنسانية" هذا العدو المحترم، خاصة إذا أغدقوا بها على "الجويم" .

كان هذا الاتصال هو الأخطر والأعظم في حياتي، سمحوا لي بعد أن تقدمت بخمسة وأربعين طلباً عدّاً ونقداً . ماذا سأقول لأبي وأمي في هذا الاتصال الذي حُدِّد وقته لنصف ساعة، الاتصال الأعظم لأنه يأتي بعد انقطاع دام ثلاثة عشر عاماً ... أعوام في المقاومة في لبنان وعشرة في الأسر .. هو الإتصال الأخطر لأنني سوف أدهمهم بأسوأ نبأ سمعوه في حياتهم، سأُخبرهم بأوضاعي الصحية الخطيرة والمخيفة،

كيف سألقي عليهم هذه الكارثة؟! مهما تلطَّفتُ فيها، ومهما كنت دبلوماسياً وبارعاً، إلا أنّ المضمون ستلتقطه قلوبهم، وتتجرع قسوته ومرارته، فمهما كانت يد الطبيب خفيفة وماهرة فإن الإبرة ستحافظ على وخزها، وستوصل بلاغتها إلى أعماق المريض .

حددوا لي موعد الاتصال، وكلما اقترب الموعد تصارعت الأفكار .. ماذا أَقول لهم، وماذا أُخفي عنهم؟!

هل أُخبرهم عن حالة الفشل الكلوي التي أَصبحتُ أعاني منها؟! سيمطرونني بوابل أَسئلتهم؛ كيف حصل هذا؟! منذ متى؟! سيسأل أبي عن أدق التفاصيل .. هكذا كان منذ نعومة أظفاري فأنا ابنه البكر، أول العشرة، حظيت بحصَّة الأسد من الاهتمام والتقدير، كان يشاركني بكل شيء، يصحبني معه إلى مجالس الكبار، آخاني وصادقني منذ صغري، كنت أشعر أنني كبير في قلبه، سار معي سنوات عمري الأولى يوماً بيوم ولحظة بلحظة إلى أن فرقنا نداء الواجب، التحقت بالمقاومة في لبنان وتركته في معترك الحياة يعمل ليل نهار لتدبير شؤون العائلة الكبيرة، سيسألني الكثير، أما أمي فستسألني دموعها، سيصل نهر دمعها إلى السمّاعة التي أقبضها بيدي، كان الله في عونها وعوني على هذه اللحظات، لن تستطيع الكلام وسيستغل أبي نقطة

الضعف هذه، يجب أن أُحضّر نفسي لأيّ سؤال، وحتى يكفي الوقت يجب أن تكون إجاباتي مختصرة ومفيدة؟

هل أُخبرهم عن إجراءات المحكمة التي نظرت في التقرير الطبي، وكيف تابعوا الإهمال المتعمد؟ ورغم التقارير المشوّهة فإن الحقيقة ظهرت كفلق الصبح بارزة للعيان .. نظروا في فترة التشخيص الأخيرة للمرض التي استغرقت خمسة عشر يوماً . كيف بهم لو نظروا في معاناة السنوات الخمس والتطمينات الكاذبة التي كانوا يتفنّنون في صياغة تبريراتها .. الإجابات جاهزة لأي مرض مهما بلغ .. كانت أعراض المرض الظاهرة للالتهاب في المسالك البولية، ومع ذلك تجد الإجابة: "مغص طبيعي"، "برد في الليل" .. عيادة كعجائز القرون الوسطى .. "اشرب الماء" .. "شاي وليمون" ..

عندما نقلوني نهاية المطاف إلى مستشفى "برزيليا" في عسقلان، خلال ربع ساعة وبعد فحص دقيق كان الجواب الدقيق: فشل كلوي، تحتاج إلى غسيل كلى فوراً .. قطعت جهينة قول كل خطيبٍ" .. سدت فحوصاتهم الباب على كل تبريراتهم المضلّلة، تساءلوا بعد أن أذهلتهم النتائج:

- أين كنت لغاية الآن؟!

- في السجن!

- ألم تعرض نفسك على الطبيب؟

- منذ خمس سنوات وأنا "رايح جاي" على العيادة .. ولم أصـــل إلى هنا إلا بعد خمسة عشر يوماً، وصلت معي الأمور فيهـــا إلى درجـــة الانهيار الكامل ..

لغاية ليلة أمس كان الطبيب يماطل في تحويلي إلى المستشفى، عمل مني حقل تجارب .. قال سأسقيك كأساً من الشاي والليمـــون وأرقب النتيجة؟! ولما رأى أني تقيأتها وبدأت أفقد الوعي مع إصفرار الوجه وذهول العينين .. أوصى بنقلي الى هنا ..

أحدهم وبصوت خافت كل ذرة في جسمي سمعته بوضوح

- قال لزميله:

- له عمر جديد .. لو فقد الوعي لما أمكن إعادته للحياة .. جاءنا في اللحظة الأخيرة لو تأخر قليلاً لكان الآن يحتضر في الموت السريري .. لحسن حظي أن هذا التأخير الطويل في تشخيص المرض أمكن القضاة أن يلحظوا حالتي من خلال تعليقات أطباء "بـــرزيلاي" المكتوبـــة: اتضحت لهم الأمور .. لم تعترض الجهات الأمنية على أطلاق سراحي لخطورة وضعي الصحي وهذا نادر الحدوث لأن احتياطاتهم يبـــالغون فيها إلى درجة الهوس كما هو معروف لكل من وصل محاكمهم .. لم تعترض أدارة السجون عليّ وأنا أُشكل عبئاً كبيراً .. هـــز القضـــاة

رؤوسهم وبدا عليهم الاقتناع بإطلاق سراحي فوراً والخلاص من هذا الهمّ الكبير .. وصل اعتراض واحد فقط من مدّعي عام الدولة "الباكين روبنشتاين" .. رئيس الوفد الإسرائيلي في مفاوضات السلام سابقاً .. قال عبارة صغيرة ولكنها ضلّلت القضاة بحقدها وسوادها .. "إنه خطير على أمن الدولة" .. صدر القرار:

"رغم صعوبة وضعه الصحي ورغم الأبعاد الإنسانية المأساوية إلا أنّ عليه البقاء في السجن فترة محكوميته البالغة خمسة وعشرين سنة كما نوصي لجنة الثلث التي تنعقد لمناقشة وضعه بعد سبع سنين أنّ تراعي وضعه وتطلق سراحه نظراً لأنه حسن السيرة والسلوك في السجن" .

يُضرب المثل في قلوب الذئاب، لا أتصوَّر أنَّ للذئاب قلوباً مثل هذه، للذئاب قلوب مهما قست ولكني أشكّ أن يكون لهذه الكائنات قلوب رغم تشكيلاتها العصريّة الزائفة .. محاكم وقضاة .. لجان وتقارير .. عيادات ومذابح تذبح فيها الضمائر والقلوب ..

عن ماذا أخبرهم في هذا الاتصال؟! عن معاناة الخمسة عشر يوماً التي سبقت البركان؟!

في ٩٨/٧/١٥ انقضّت عليَّ أعراض خطيرة .. رجفة في اللسان والشفتين .. قيء متواصل .. فقدان للشهيّة .. سارعت إلى

المشعوذين في العيادة .. فحصوا وقالوا بثقة مطلقة: "جفاف ناتج عن الجو الخماسيني وارتفاع الرطوبة" .. اعطوني فيتامينات - حسب ذمّتهم والله أعلم - مع بعض الحبوب التي تعالج الجفاف .. بعد ثلاثة أو أربعة أيام وانا مواظب على وصفتهم المقدّسة وأنتظر التحسن بفارغ الصبر، تضاعفت الأمور وأخذت منحاً خطيراً .. انتابتني تشنّجات في العضلات (قالوا لي أنّ هذه ناتجة عن الرياضة .. عليك أنّ تخفف من رياضتك ..) شعرت حينها بخطورة الأمر .. يستمر مغص الكلى منذ فترة طويلة .. وكذلك المعاناة في البول .. مع قيء وارتجاج الفم واللسان .

لعبت بي الهواجس .. انتابني القلب الذي هبط عليّ من كل جانب .. لا يمكن أن يكون كل هذا من الرياح الخماسينية ولا السبعينية .. فليست هذه المرة الأولى التي تمرّ عليّ هذه الرياح!!

إن الأمر خطير بلا أدنى شك .. ولا يستطيع أحد أن يقدّر الأمر أفضل مني .. قررت الصراع مع هذه العيادة النكدة .. كنت أتقدم إليها كطالب يد حسناء في بداية الأمر، يتمنّعون علي عدة أيام حتى أحظى أخيراً بأن يلقوا نظراتهم المشؤومة على هذا الجسد الذي يتقصّف ألماً .. قرّرت أن ألقي بكل ثقلي وأن أواصل نضالي معهم

حتى أصل إلى العلاج المطلوب .. أشعر أن مرضاً خطـــيراً ألم بي ولا حياة لمن تنادي .

في الفاتح من شهر آب لم أستطع إكمال تلك الليلة الطويلة في غرفتي .. قيء متواصل - آلام حادة تضرب بسكاكينها من كـــل جانب .. دارت بي الدنيا .. شعرت بأني مركز السجن والسجن يدور في فلكي .. تقوقعت "الأبراش" على رأسي .. رأيت نفسي معلقاً في سقف الغرفة وأرضها اصبحت سقفاً .. تتأرجح الغرفـــة كبنـــدول الساعة.. نقلوني إلى المشعوذة - العيادة - الساعة الثانية ليلاً .. وجدت فيها مشعوذها الأكبر .. الطبيب المناوب - طبيب زنازين التحقيق - أوصاني بشرب الماء - علمت فيما بعد بأن الماء في مثل هـــذه الحالـــة يُحدث أضراراً كبيرة .. والآن بعد إنجلاء الأمر يُمنع عني أن أشـــرب أكثر من لتر في اليوم والليلة .. سقاني في تلك الليلة قرابـــة الخمســـة لترات .. وعلق لي إبرة التغذية لكن بلا فائدة تذكر .. بل ازداد الأمر سوءاً .. طلبت منه تحويلي إلى المستشفى .. رفض وكأن أفعى رقطاء لذعته .. قال لي: أنك سليم مئة بالمئة .. لا يوجد داعي ..

مكثت يوماً كاملاً وأنا أنتفخ والألم يتخـــبطني مـــن كـــل جانب.. طلبت منه إما العودة إلى الغرفة أو إلى المستشـــفى وحمّلتـــه المسؤولية الكاملة عما يحدث لي .. أحضر لي الشاي والليمون كآخر

شعوذة يمارسها علي ثم نقلوني أخيراً إلى المستشفى حيث وجدت التشخيص السريع خلال ربع ساعة .. كان مستشفى آخر، مستشفى بعيد عن أجواء السجون وطب الشعوذة ..

عن ماذا اخبر والديّ؟! هل استطيع أنّ أخفي عنهم هذه النتيجة التي وصلت اليها؟! هل وصلتهم أخباري عبر وسائل أخرى .. الصليب الأحمر ووسائل الإعلام الفلسطيني تناقلت بعض أخباري بإمكاني إخبارهم لو أنّ الأمر لم يصلهم عن البدايات التي مررت بها .. وفي اتصال قادم أو عبر رسالة سأكمل لهم بقية الحلقات .. أما أنّ أواجههم بالحلقة الأخيرة من المسلسل فالأمر سينقضّ عليهم كالصاعقة.. أبي قد يتحمل أمًّا أمي فهل تستطيع؟! أخشى أن تقوم حالة الفشل الكلوي عندي بإفشال كل حياتها عليها .. سترك يا رب..

اتخذت قراراً حاسماً سأخبرهم عن البدايات فقط .. الحلقة الأولى والثانية .. فيما وبقية المسلسل يتتابع فيما بعد .. رفقاً رفقاً يا حادي .

عندما أصابتني الالتهابات في المسالك البولية في البدايات كان يسهل العلاج في مثل هذه الحالات .. لكن لم يكن تشخيص ولا علاج فانتقلت الالتهابات إلى الكلى نفسها .. غزتها بسرعة .. فرضت

شروطها كاملة حتى أصبحت تعيد البول عليها كما يتلقى المهـــزوم مرارة الهزيمة ..

كنت أعاني من آلام حادة فأتوجه إلى المشـــعوذة فتـــأبى أن تحولني إلى أخصائي الكلي والمسالك البولية رفضت بشـــدّة إجـــراء التصوير أو إجراء الفحص المطلوب . خافت من انكشاف عـــورتي!! نسيت نفسي ودخلت إلى الحلقة الثالثة .. يكفيهم أن أخبرهم عـــن التهابات في المسالك .. والكلى ايضاً .. ونقطة .. البقيّة تتبع .. يعني هذا: خمس سنوات في كلمتين ..

سأطلّ عليهم عبر هذا التلفون السحري لأَسحرهم بأخبـــار المشعوذة .. صورتي في خيالهم هي لذلك الفتى الذي يشتعل فيه لهيب الشباب وحماس الثورة .. الشاب الطموح الذي يحمل على كاهلـــه عبء تحرير فلسطين وكأن فلسطين خُلقت له وحده .. فتى الســـبعة عشر عاماً .. هل تضيفون إليها عشرة سنين في الأسر وهذه تحســـب بعشرين على الأقل .. أضيفوا معاناة الأسر ومعاناة المرض حتى تجدوا أمامكم كهلاً قد قارب الأربعين .. أطلب منكم أن تستنسخوا صورتي الاولى فلا تزال روحي هي روح ذلك الفتى .. فالعبرة في الروح التي تمتطي هذا الجسد الفاني ..

قرّرت ان اخفي عنهم الكثير .. قررت إخفـــاء عمليـــات الغسيل التي أُواظب عليها، منها اكتشاف هذا الفشل ..

يوم بعد يوم .. أعكف أربع ساعات .. أُشارك فيها اعضائي الداخلية بعقلي وقلبي .. تصطف أحاسيسي، ومشاعري تعزف أوبرا حزينة .. تصلح لتشيِّع ميتاً يأبى مغادرة الجسد .. يأبى أن يُدفن ويزرع مكانه .. فالزراعة تحتاج إلى متبرّع وهذا يحتـــاج إلى انتظـــار في دور طويل ..

قال لي أحد الأطباء: .. هل تتصور إن وصلك الدور أنهـــم سيقدّمونك على يهودي؟! قال آخر: إنّ لك تسع أخوة في سوريا .. بإمكان أربعة منهم التبرع إليك .. ما عليك إلا استدعاء أحـــدهم .. قلت له: هكذا بهذه البساطة!! أُحضر أخي الذي لم أره منـــذ ثلاثـــة عشرة عاماً .. تنتزعون كليته الحرّة من جسد حرّ يعيش في بلد حرّ .. توقعونها في أسر جسد آخر كان قد وقع في أسركم، وترفضون إطلاق سراحه؟! كيف تفكّرون؟! تفكير الغاب يشطح بكم؟!

لن أخبرهم عن يدي التي باتت لا تستوعب وصلة الغسيل .. وصلوا الشريان بالوريد فأصبحت دائمة الاهتزاز وكـــأن رجراجـــاً كهربائياً قد زُرع فيها .. أصبح الغسيل يتم من خلال وصل "البربيش" بشريان الصدر .

ماذا لو ارتسمت صورتي في أذهانهم وأنا ملقىً أربع ساعات أتبادل الآراء؟! أُنادي من أُناشد .. أَشكوا لهـــذه الآلات الضـــاغطة والقابضة بلا كلل أو ملل .. أُعطيها وتعطيني .. أحياناً أجد فيها أُنسي وتفريغ كتبي .. تأخذ وتعطي (كثير من بشر هذه الآيام يأخذون ولا يعطون) .. أحياناً أُخرى أجد فيها بلوة كبيرة تصبُّ في صدري المصيبة التي تفرض نفسها ولا مناص منها

صورتي الآن ستقلب الأرض من تحتهم، ستطبق سماءهم على أرضهم فيسيرون في هذه الحياة بلا سمـــاء ولا أرض .. أبي وأخـــوتي سيتلقّون هذه الصورة بصمت حزين يرتسم على وجوههم .. وعنـــد أمي وأخواتي ستنطلق جداول الدموع من مصادرها بطلاقـــة .. لـــن تحبس إلا حين يُفرج عني وتُزرع لي كلية حياتي .. ليســـت حيـــاتي وحدي وإنما حياتنا جميعاً ..

كانت صورتي التي أرسمها لهم عبر رسائلي قبل هذه الطامـــة هي صورة الشاب الرياضي، مفتول العضل الذي يملأ وقتـــه بهجـــة ونشاطاً .. كانت اخبار دراستي الجامعية أصل بها إلى مواطن السرور في نفوسهم .. أُشعرهم بأن سنوات أسري لن تذهب سدى، وأنـــني سأعود إليهم يوماً من الأيام وبيدي الشهادة الجامعية .. لكن، خسارة .. قطعني المرض عنها الآن .. ما أشدُّ ما يتعسني هذا الانقطاع ..

اقتربت ساعة الصفر .. جاءت لحظـــات الاتصـــال تمشـــي متردّدة.. تقدم خطوة وتؤخّر أُخرى .. أحياناً أتمنّى أن تخطئ العنوان فأعفى من سيل هذه المشاعر الملّونة .. اختلطت فيها ألوان قزح الجميلة بالأَلوان السوداء .. وأحياناً أخرى أتحرّق شوقاً لسماع أنفاسهم مهما كانت، مبهجة أم حزينة ..

رفعوا لي السماعة بعد أن طلبوا الرقم .. يكاد قلبي يخرج من صدري .. يتراقص بين يدي .. جلدي يقشعر .. أرجلـــي لا تكـــاد تحملني .. أنقذني كرسي بجواري يشكو كثرة مقتعديه .. ألقيت نفسي عليه .. تحملني .. ضاقت بي قدماي ..

أذهلتني المفاجأة .. بعد الآهات والكلمات المتلعثمة مع أبي .. فاجأني بأنه يعلم كل شيء عني حتى أَدق التفاصيل .. دخل صـــلب الموضوع مباشرة:

الفشل الكلوي ... وكأن تقريراً طبياً مفصلاً بين يديـــه .. قال: إن اخوتك كلهم ينتظرون الافراج عنك .. كليـــاتهم جـــاهزة وتنتظر الزراعة في أرضـــهم المباركـــة .. جســـدك أرض حيـــاتهم وأرواحهم.. يفدونك بكل شيء .. إنزاح عني ثقلاً عظيماً .. تنفستُ بعمق .. أراحني من هم تبليغ اخباري التي لا تسر صديق ..

انتقلت السماعة إلى أُمي .. لم أسمع سوى دموعها .. حاولت كل جهدي لأسمع كلماتها، لم أَستطع .. الوقت يمشي سريعاً والبكاء يزداد ارتفاعاً .. كل كلمة مني تسكب النفط على لهيب عواطفها .. أَشعلت النار في آباري النفطية .. فجرت مخزون مشاعري التي اتقنت دفنها منذ زمن بعيد .. رجوت ان تعود السماعة إلى ابي لوقف سلسلة هذه التفجيرات في أرضي وأرضها الملغومة .

عاد صوت أبي، تنحَّت أمي بنحيبها الصاخب جانباً .. تكلّم أبي وكأن فرقة موسيقية خلفه تعزف لحناً حزيناً يضجُّ بالحنين والحبّ والحياة ..

دارت عقارب الساعة بسرعة .. لم يتبقّ من الوقت شيء و لم يتبق من الكلام سوى بث التحيات والسلامات .. عَـانَقَ إخـواني وأخواتي السماعة .. وزّعت عليهم كلماتي المقتضـبة .. أنـا بخـير، معنوياتي عالية، لا تقلقوا، الفرج قريب الصحة مستقرة وجيدة، تُفرج إن شاء الله .. سأكتب لكم بالتفصيل .. مشتاق إلـيكم .. وانتظـر رسائلكم .. مع السلامة .. في أمان الله .

كان هذا اليوم، يوم الاتصال بأهلي يوماً تاريخيـاً في مـدار أسري .. ألماً بارزاً لن أنساه ما حييت .. اليوم يوم استراحتي وغـداً

"برزيليا" والأربع ساعات علـــى إيقاعـــات "الـــبربيش" والغســـيل
الصّاخب.. في واحة الديمقراطية .

جمعة اسماعيل: "صخرة في صدره"

أكّد لي بأنّه رأى "عزرائيل" .. قلت له: إن ملك المـــوت لا يُرى، ثم إنه لا يأتي إلا لقبض الأرواح .. لا يتردد على المرء إلا مـــرة واحدة .. هي الأولى والأخيرة .. زيارة تكون فيها القاضية .. (ولـــن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها) .. عصر عينيه وقبض جبينه وقال:

- من يكون إذن؟! لقد رأيته بعيني هاتين .. حسبته شرطياً في البداية.. أمعنت النظر فإذا به يطوف حول سريري ويتحرك بطريقة لا يمكـــن لشرطي أن يقوم بها .. خيّم عليّ .. أطبق جناحيه .. اقترب فكـــان أقرب لي من حبل الوريد .. تشاهدت على روحي، ولكنّه خفَّ عني وانسحبت من الغرفة بسلام ..

تساءلت متشكّكاً:

- قد تكون أضغاث أحلام طالما أنك كنت في حالة غيبوبة أو بـــين الغيبوبة واليقظة؟ ..

- لا .. لا .. كنت قد انتهيت من هذه الغيبوبة اللعينـــة كفـــاك الله شرها.. وصلت الموت ولكن الله سَلَّم ..

- سمعنا عما جرى لك ونحن في عسقلان .. قالوا لنا إن "أبو اسماعيل بين الحياة والموت" .. اعتدل، قوّم جلسته .. شعر بأن أمامه من يحاول مشاركته في حمله .. "الناس تواسي بعضها البعض .. صحيح أن الذي يأكل العصيَّ ليس كمَن يَعُدّها، ولكن في المجاملة والمؤانسة تخفيف من هذا الحمل الذي يثقل كاهلي ويضغط على صدري" ..

- كان أسبوعاً صعباً .. أطول أسبوع في حياتي، شعرت، وكأنَّه سبع سنين، اليوم بسنة .. ضاق بي صدري .. شعرت بأني أبتلع حجـــارة كبيرة .. تدخل إلى صدري ثقيلة تتراكم بعضـــها فـــوق بعـــض ولا تستطيع الخروج .. شعرت بجهنم التي من وقودها الحجارة .. مـــاذا تفعل في صدري؟ من يخرجها؟! أين الهواء الخفيف الذي كان يدخل ويخرج دون أن أشعر به؟ .. أصبح صدري كتلة حجرية واحـــدة لا يستطيع الهواء أن يشقّ طريقه .. اختنقت .. وددت لو لفظت أنفاسي الأخيرة وخلصت من هذه الورطة .. بل تيقنت أني في الدقيقة الأخيرة من عمري .. مرّ عليَّ شريط حياتي بصورة سريعة متقطعـــة كفـــيلم سينمائي شوّهته يد الرقابة من كثرة الشطب والحـــذف .. تـــذكرت طفولتي في المخيم .. الفقر، الجوع، والاحتلال .. تركـــي المدرســـة

ودخولي عالم العمل والكدح وأنا ما زلـــت في طفـــولتي .. غـــربتي الطويلة.. الشام وزواجي هناك .. أولادي الذين انقطعت أخبارهم منذ عدة سنوات .. عودتي إلى أم إسماعيل .. أولادي وبناتي .. ثم جاءتني الحبسة "تمشي على استحياء" .. غيمة ســـوداء اســـتقرّتْ في سمـــاء وجداني.. فرضت نفسها بعنف .. ناطحتها فلم تتزحزح .

تذكرت مناوشات أم إسماعيل لجنود الاحـــتلال وكفاحهـــا الطويل في مظاهرات التضامن .. أبلت بلاءً حسناً وكانت معي خير سند .. حاولت تبديد هذه الغيمة ولكنها استعصت وأبت، كأنها ضرّة قوية يحسب لها ألف حساب ..

أسافر في عالم ذكرياتي فتعيدني هذه الصخرة التي تكلست في صدري سريعاً إلى بوتقة الألم والاكتواء بلهيبٍ دامٍ أشعل روحي ناراً وألماً .. فتكت بي نار المرض ونار الأسرِ ونار الذكريات العزيزة التي لم تتركز في حالي "فزادت الطين بلّة" .. تخربطت الألوان .. تشـــابكت الأجسام من حولي .. أغلق على عينيَّ الضباب الأبـــيض، اســـتقرت الصخرة في صدري فهوت بي إلى قاع بحر الظلمـــات فغيـــبني عـــن الوجود..

لا أدري كم مضى من الوقت .. قالوا لي فيما بعـــد بأنـــه أُسبوع .. انقشعت الظلمات عن عينيّ .. أفقتُ من كابوس مزعج ..

رأيت أضغاث أحلام تتقلّب صورها وتغادر بسرعة وكأنها على عجلة من أمرها .. قلت في نفسي: لا بأس فنحن في عالم عجيب .. عـــالم السرعة .. حتى الأحباب يطلون عليّ إطلاله سريعة مـــا تلبـــث أن تتلاشى مرتفعةً عن مخيلتي .. تشابكت الدوائر ثم تمركزت في دائـــرة واحدة .. تجرأت .. خفت من رؤية عالم الأموات .. هل أنا حـــيّ أم ميّت .. أذكر أنني متّ وحررت شهادة الوفاة بعد ابتلاعي الصـــخرة الكبيرة .. لا يمكن لإنسان أن يبقى حياً بعد هذا البركان الذي ألقـــى بكل حممه في وديان صدري .. تشجعت وكشفت عن بياض عيني .. استرقت النظر .. لم أر ملائكة العذاب ولا ملائكة الرحمة .. رأيـــت "برابيش" العذاب في يدي وعلى أنفي .. الماء والهواء يصب الحياة في هذا الجسد المتهالك .. رأيت الزبانية .. حاولت إغماض عينيّ ولكنني وجدتها قد تسمّرت على الزبانية .. تقذفهم بلعنات أبدية .. إنهم زبانية السجن .. عن اليمين وعن الشمال قعيد .. حراسة لا تنطفـــئ ليـــل نهار.. أيّها المجرمون .. تحرسون رجلاً على فراش الموت .. تلقّنـــونني الحقد واللعنات .. ثم إني لمحت القيد في رجلاي .. يا فرحتك يا "أبو اسماعيل" إياك أن تهرب .. الأرجل مربوطة بالسرير إلا إذا استطعت أن تهرب مع السرير ..

لقد هيأ لهم شيطانهم بأنهم يحبسون جنّاً مارداً من نار وليس إنسياً من لحم ودم، شعرت بأن ثقلاً جديداً قد هبط عليّ وأغرق كياني كلّه .. سمعت كل شيء من حولي يقول لي "لا حمداً على سلامتك" .. حتى شرطة الحراسة والتي تعودنا على تبادل المجاملات معها رأيت في عينيها الشماتة .. ورأيت الضيق على وجوههم عندما شاهدوا عودتي للحياة .. تخيّلت نفسي في مستشفى محترم .. أم إسماعيل على يميني والأولاد يلتفّون حول سريري .. أم إسماعيل تحتضن رأسي براحة يدها وتشد بيدها الأخرى على يدي .. الأولاد يتسابقون بابتساماتهم .. يوزّعون عني حلويات السّلامة .. الأطباء والممرضين والممرضات يغبطوني على هذا الحنان المتدفق من هذه القلوب الرقيقة .. ودموع الفرح تختلط مع دموع الحزن والشفقة والحب .. ثم تتوالى زيارات الأحباب .. أطلب من الأولاد الذهاب إلى مدارسهم، وأبقى مع أم إسماعيل نستقبل ونودّع .. أحلو بها وأبادلها نظرات شبابنا وأيامنا الحلوة .. كنت أغمض عيني على هذه الصور .. أضغط جفوني عليها .. أخاف من النظرة الواقعية التي تحدّد ملامح أقسى صورة عرفتها في حياتي .. تماثيل بشرية جامدة لا تعرف غير الحقد .. أدوية وعلاجات تنقذ من الموت ولكنها تبقيك على حافته، تتنظر وتترقّبه في كل وقت، وحين تتجرع الموت ألف مرة قبل أن

تلاقيه .. الموت قبل الموت .. الموت الذي يجعلك تتمنى المـــوت فـــلا تلاقيه ..

قطعت تأملاته محاولاً سحبهُ من ظلام تلك الذكريات .

- وبفضل الله عدت سالماً "أبو اسماعيل" .

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .. مكثت بعدها فتـــرة طويلة لا أستطيع الحركة .. أعادوني إلى هنا .. قام الشـــباب علـــى خدمتي .. كنت إذا أردت شربة ماء لا تقوى يدي على نقل الكـــأس من الطاولة إلى فمي .. أتذكر الخال "أبو مرزوق" كيف كان قبـــل وفاته رحمه الله .. أية حركة تتطلب مجهوداً عظيماً .. صدري لا يقوى على لفظ أنفاسي عند أي فعل مهما كان بسيطاً .. تناولي الطعام كان كمن يعمل في المحاجر فينقل الحجارة الكبيرة من المحجر إلى الكسارة .. كسر الحجارة أهون عليَّ من مضغ الطعام ..

- ولكن صحتك اليوم أفضل بكثير ..

- هذا من فضل الله .. كتب الله لي الحياة رغم ما أُعاني من الأزمـــة والسكري وارتجاج في المخ يؤكد لي آلاماً دائمة في رأسي، ولا تسأل عن آلام المفاصل والتهاب في البروستاتا فإنها من نافلة القول ..

- فرج الله قريب يا "أبو اسماعيل" ..

- أي فرج .. أنا شخصياً لا أطلب سوى العلاج .. والفرج لا يـــأتي منهم .. لا يأتي إلا من الكريم .. أذكر يوم الإفراجـــات كنـــت في عسقلان .. قالوا لنا إنهم اتفقوا في طابا على أن يُوقّع الأسرى علـــى وثيقة تعهّد تقضي باحترام عملية السلام .. نادوا اسمي للتوقيع .. قلت و لم لا .. أنا دائماً أفرض احترامي على الجميع .. أَحترم وأُحترم وما في القلب يبقى في القلب .. (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمـــان) .. وصلت إلى الإدارة وقال لي ضابط الأمن لعنة الله عليه .. أينما حـــل وأينما ارتحل:

- أنت محكوم مؤبداً وعشر سنوات .. رفعت عنك العشر ســـنوات وبقي المؤبد .. جاءتنا مخالفة سير عليـــك دفعهـــا .. خمســـة آلاف شيكل..

كانت هزّة عنيفة ضربت أرض معنوياتي بألف درجة علـــى مقياس رختر .. زلزلتني من أعماقي .. طوحت أحلامي التي رسمتـــها بسرعة في ميدان الحرية .. عدتُ إلى رائحة السجن والسجان النكدة بعد أن تنسّمت شذى الحرية .. عدت إلى الهاوية بعد أن صعدت إلى أعلى وأوشكت على الخلاص .. كان الله في عوني على تلك اللحظات ما زلت أرتعش على ذكرها وأتحسس ضربات قلبي الصاخبة .

هززت رأسي وقلت:

- كان الله في عونك .. أروفَ ..

- "والا هو ها الأمراض اللي بحملها من قليل" .. لي سنتين ونصف في المستشفى هنا والله وكيلك كل أدويتهم مسكنات لا علاج فيها ..

- ستفرج بإذن الله وأرجلهم على رقابهم .. وإن شـــاء الله تتـــزوج الثالثة..

"اهتز كرشه الصغير ضاحكاً" .. شعر بتعب صـــدره، زَوَّدَهُ برذاذ بَخَّاخته الزرقاء فالحمراء .. مسح عرق جبينه وقال بعد أن أضاء عينيه ..

- أنا لا أرضى بديلاً عن أم إسماعيل .. ثم أنه لم يتبق من العمر أكثر مما مضى .. ٥٨ عاماً أطمع بحسن الختام وتحقيق مرضاة الله .

- والمستقبل يا "أبو اسماعيل" ..

- لا أنتظر سوى رحمة الله .

- والإفراج ..

- طبعاً الترويحة ضرورية حتى أحج وأزوج الأولاد وبعد ذلك أهـــلاً ومرحباً بلقاء الله ..

قلت مبتسماً ..

- بعد ذلك وليس قبل ذلك .. وما ذلك على الله بعزيز ..

علي شلالدة: "ما لها إلا الله !!"

فزعنا من نومنا الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.. كان صوت جارنا "أبو الحسن" يتأرجح بين الضعف والقوة .. صوت جهوري هدَّهُ الإجهاد وأعمل فيه معوله الذي لا يرحم .. وقفت على باب غرفتنا فوجدته متعلقاً بشباك باب غرفته .. لاحت لي صلعته التي كستها حبّات العرق .. كان كطائر بلّه المطر .. كان ينادي والممرض لا يستجيب لندائه .. ساعدته في النداء .. رفعت صوتي عالياً .. سمع الممرض، وعندما رأى اصفرار الوجه وشحوبهُ الواضح للعين المجردة، سارع بإجراء الاتصالات اللازمة لفتح الباب في الليل .. فتحوا الباب وأخرجوه إلى العيادة .

تربّعت على "برشي" .. "أبو الحسن" علي شلالدة المحكوم خمسة وعشرين سنة على خلفية قيادة مجموعة عسكرية في مقاومة الاحتلال وزرع عبوات ناسفة .. لم يَقْضِ منها سوى تسع سنوات .. كان الله في عونه .. تداعت عليه الإمراض (كما تتداعى الأكلة على

قصعتها) تناوشته من كل جانب، وأحياناً تطرحه أرضاً فيرى النـــاظر إليه جبلاً أصبح قاعاً صفصفاً .. طويل القامة، ضخم الجثـــة، كـــرش بارز، رأس يفيض حيويّة يُطِلُّ عليك من فوق مرتفع عالٍ .. تســـمع لصداه أزيزاً كأزيز المرجل .. يبدو أنه في العقد السابع رغم أنّ عمره واحد وخمسون عاماً .. أعلم عن معاركه مع المرض الكثير .. أتذكر حينما كان في عسقلان سنة ٩٢ .. قلع طبيب الأسنان لـــه ضرســـاً وزرع مكانه التهاباً دائماً يقض عليه مضجعه بين الحين والآخر ولغاية اليوم .. فَكُّه ملتهب ويضرب على صـــفحة وجهـــه .. أزاح هـــذا الالتهاب بصره .. قال له الطبيب آخر مرة ساخراً: قـــد تحتـــاج إلى زراعة فك في يوم من الأيام .. "كورس" مضادات حيوية وراء آخـــر ولا حياة لمن تنادي .. هذه إحدى المعارك البسيطة الـــتي لم تُحســـم بعد.. أما المعارك الكبيرة، ومتى تضع الحرب أوزارها، فيظهـــر أنهـــا ستتحقق هناك في جنات النعيم ..

بقيت مشدوهاً بعد أن طار النوم من رأسي .. أتذكر معارك هذا الرجل في مواجهة أمراضه العاتية .. بدأت معه الأزمة أثناء فتـــرة التحقيق اللعينة .. زنازين المسكوبية معروفة في حضنها الدافئ!! تفيض حناناً وعشقاً لزبائنها الكرام .. تمسك عليهم أنفاسهم بشمّ هوائها .. طاقات تهويتها مزروعة في سمائها، والذي يتحكم بتزويد الهواء هـــم

المضيّفون أولاد النعم الكرام .. ويل للضيوف المشاكسين الـــذين لا يقدمون بين يدي مضيفيهم الاعترافات المطلوبة .. عندها يترل عليهم سخط سمائهم بإغلاق تلك الفتحات في جحيم العذاب الذي يتناولهم صباح مساء ..

ضاق صدر أبي حسن في تلك الزنازين .. "الهواء، الصـــديق الغالي قطعوا صلته الحميمـــة بي .. صـــادروه .. اعتقلـــوه .. أرادوا خنقي.. فرغ صدري من الهواء النقي وأتعبوه بهـــوائهم الـــدّنس .. صدري الذي اعتاد على الهواء الطلق .. ذلك الصدر الذي لم يتعرّف في حياته إلا على هواء الحرية .. قمعوا هواء حريتي و لم يفسحوا المجال لهواء ربي أن يتسلل إلى صدري إلا بصعوبة بالغة وبعـــد أن يشـــبعوه بروائحهم النكدة ورطوبتهم العفنة" ..

نَمَتْ وترعرعت الأزمة في صدره من زنازين المسكوبية حتى إذا اشتد سوقها هبطوا به إلى سجن عسقلان وسط مدينة صناعة تعجّ بما يشرح الصدر من غازات المصانع والمداخن التي تنفث سمومهـــا .. تشبعت رطوبة الجوّ الساحلي المنعشة بكيماويات المصانع الكاوية .. تسمّمت الأجواء بهذا الخليط الثقيل الذي يفرض نفسه على الصدور ببلادة عجيبة .. يمهّد ويهيئ الصدور لزراعة مجيدة وحصـــاد أعـــتى الأمراض ..

تضاعفت الأزمة في الأجواء العسقلانية .. ضاق بها صـــدره تعالوا خذوه إلى نفحة حيث الجو الصحراوي .. إنه المستشفى الطبيعي لأمراض الصدور .. صحيح أن هناك البرد القارس في الشتاء والحـــر الشديد في الصيف، ولكنه أرحم من هنا، ويعـــرف كيـــف يكـــرم ضيوفه.. وفعلاً قام بالواجب بعد اثني عشر يوماً اضطروا لنقلـــه إلى مستشفى "سروكا" بعد أن تدهورت صحته وضاق صدره بصـــحراء نفحة وما رحبت .. كان يشعر في ذاك المستشفى وكأن سكيناً قـــد أثبت في مركز الصدر ثم جعل يدور بحركة دائرية فيقطّع كل ما يقف في طريقه .. معنويات أبي الحسن عالية نزلت عن سقف مطالبـــها، لم يكن له سوى مطلب واحد .. العلاج .. وخذوا بعد ذلك ما تريدون.

عندما يشتد ألم صدره، ويضرب بطوقه الضاغط وفي نفـــس الوقت يتأخر ويتقاعس العلاج، تأتيه مصائبه بقيادة مصيبة الأســـر .. تلح عليه وتضغط هي الأخرى على صدره وأعصابه ورأســـه وكـــل ذرات جسمه .. كان يقول: ماذا لو أني في بيتي أجلس على الشـــباك الغربي .. ذاك هواء أرى فيه شفائي .. ثم أني أختار طريقة علاجـــي بيدي .. أذهب إلى الطبيب المختص في الوقت المناسب .. قاتلهم الله دائماً، علاجهم يأتي متأخراً بعد فوات الأوان .. يفرضون علينا أطباء وكأنهم جاءوا عبر الأطباق الطائرة من كوكب آخر .. بعضـــهم لا

يستطيع إخفاء حقده .. أحدهم غرز إبرته في الوريد ففقدت الـــوعي وارتفع ضغطي .. قال لي فيما بعد أحد الأطباء الأسرى بـــأن هـــذا المصل لا يجوز مطلقاً أن يُعطى بهذه الطريقة ..

كان أبو الحسن، عندما يشرح تلك الحادثة، يعتصـــر ألمـــاً ويقول: لقد أحدثوا بي أضراراً عظيمة .. أفسدوا أكثر مما عمَّـــروا .. بعد تلك الحادثة، ضغطي غير منتظم، إضافة إلى الزلال الذي استقر في أرجلي فضاعف من معاناتي .. قلت له في إحدى المرات: "ألا تثـــق بعلاجهم؟!" ردّ قائلاً: بعد أن قطب حاجبيه:

- أعوذ بالله .. أذكر لك قصّة حصلت معي .. إحدى المرات فتحت قنينة الدواء التي صرفوها لي في ذلك اليوم .. وضعت منها في جهـــاز التنفس بعد أن داهمتني أزمة خانقة .. شغلت الجهاز وبدأ يبث شجونه الحانية .. وصلتني فاهتز بها كياني .. نخرت في صدري رائحة نتنـــة، "فطيسة" .. قلت في نفسي: تصبّر لعل هذه الرائحة من الخارج ولكنّي لم أستطع المتابعة .. قرأت على زجاجة الدواء فإذا بتاريخها قد انتهى.. راجعتهم فأبدوا دموع التماسيح والاعتذار ..

ها أنت ترى الشكل شكل المستشفى، أما المضمون ومستوى العلاج فإنه كإصطبل للدواب أعزّك الله .. تجد لعلاجهـــم حـــلاوة، ولكنه يروغ في دمائنا كما تروغ الثعالب .. إنه خبث يهود ..

قلت له:

- ولكنك تتابع معهم علاجك؟ سارعني بالإجابة ..

- لا يوجد بديل ..

لم أستطع النوم حتى أعادوه في ليلتـــه تلـــك .. انتظـــرت الصباح.. يمّمت وجهي شطره .. وجدته في غاية القلق والاضطراب.. قلت له مستفسراً:

- خيراً إن شاء الله "أبو حسن" .

- لن نجد الخير وهم في وجوهنا .. وجدوا ضغطي مُرتفعاً وخلجات قلبي متوترة .. يدي اليمنى لغاية كتفي مع ألم في الجهة اليمنى لصدري، قالوا لي .. إنّ معي آلاماً في القلب .. أعطوني حبة تحـــت اللســـان، وضربوني إبرة مورفين .. ها هم قد أضافوا لي مرضاً جديداً .

- أعانك الله وقوّاك .. الله المستعان "أبو حسن" .

- الحمد لله .. لولا شعوري الدائم بعون الله لخرّ سقف معنوياتي منذ زمن بعيد .. أشعر وأنا أتناول دواءهم وكأني في حرب صليبية شرسة. أتجرعه ولا أكاد أسيغه، يتعمّدون تحطيم معنوياتي وغزو نفوسنا، ولكن الله اكبر .

غرقنا في لحظة صمت بدت لي طويلة لأني رحت فيها بعيداً.. رحت فيها لأولاده الاثني عشر .. زاره أحدهم بعد غياب طويـــل ..

كان أبو حسن يتكلم معه على أنه ابنه حسن .. تفاجأ بأنــه أخطــأ العنوان، إنه "هاني" وليس "حســن" .. تســع ســنوات وأولاده لا يسمعون عن أبيهم الأسير إلا المعاناة والمرض .. أعز حبيب على قلبك يُعصر، يقهر، يخنق، يموت كل يوم مئة مرة ولا تستطيع أن تفعل لــه شيئاً سوى زيارة روتينية مرة كل أسبوعين، وبعــض الاعتصــامات والمظاهرات التي تطالب بإطلاق سراح الأسرى .. إتفاق سلام خلف اتفاق .. لجنة خلّفت لجنة تكاثرت تكاثر البكتيريا ولم تسفر عن شيء، بل بددّت الآمال وطار من النفوس حلم الإفــراج عــن هــذا الأب المريض.

عدت إليه من صمتي فإذا به غارقاً .. تصورته يغرق في بحــر من الكبسولات والعقاقير الطبية .. تصورته وهو يتألم من سياط المرض ومن سياط الدواء وألاّ مفرّ من أحد الخيارين .. يتلوى ألمــاً ويختــار سياط الدواء .. يبلع ويتجرّع الألم فيضيف ألماً إلى ألمه "وما يجبرك على المرّ إلا اللي أمر منه" .. يطوف ويسافر كل يوم إلى أولاده وأخواته .. يشدُّون أوتار قلبه .. الأولاد فالأخوات فالأخوة فالخالات والعمَّات .. والأهل والعشيرة الموزعون بين القدس وسعير، ومنهم من تشــتّتت في بلاد الشتات الواسعة .. يزأر صدره .. يدخل الهواء ويخرج بصعوبة .. رحلة من المعاناة عبر المسافة الطويلة بين الأنف والرئة .. يجمّع مشاعره

المتفرقة ويطبعها في قاع صدره، ثم يلتمس لها الأعذار عندما تتقطّـــع أوصالها هناك فتتلاشى ويطغى عليها الألم .. وكلما أراد التجميع في فترات الاستقرار، داهمته قارعةً فجعلتها كالفراش المبثوث تنتظر رحمة ربها .. "تمتم .. عفوك يا الله .. قلت: ما لها إلا الله يا "أبو حسن" .. المهم أن يبقى وضعك مستقرّاً .. قال بحرارة ..

- أي استقرار وأنا أنتظر الموت ..

- خلّي أملك بالله كبير ..

- أملي بالله كبير .. لا أملك من التفاؤل إلا ما أرجوه من الله ومـــا أنتظره عند لقائه .

- هذه وحدها كافية يا "أبو حسن" .. حسبنا الله ونعم الوكيل ..

نضال أبو عليا: "أربع ساعات"

الحكم مؤبد وعشر سنوات .. مسافة طويلة ينقضي العمر وهو في بداياتها .. همٌّ ثقيل يتجدّد لا نهاية له .. جبل جثم على قلبه وحط رحاله على صدره .. كيف يتزحزح هذا الجبل وكيف يضع حداً لهذا السفر الطويل؟! يبدو أن المخرج أصبح وشيكاً، ونهاية هذا العذاب أصبحت قريبة .. خروج من السجن ولكن إلى أين؟!

ما أن يضع روحهُ تحت رحمة ماكنة غسيل الكلى إلا ويشدُّ رحاله ويسافر .. يسافر باتّجاه ما يخبئ له المستقبل ويبدأ بالعد التنازلي السّريع لفترة محكوميته .. قضى حتى الآن سبع سنوات ونصف من هذه الرحلة السّوداء .. فما هي الفترة المتبقية؟! كم ستصبر عليه هذه الماكينة .. هذه العجوز الشمطاء التي تمارس عليه سحرها .. يهرب منها يوماً ثم تجده لا يطيق فراقها فيعود لها صاغراً .. تقبض عليه أنفاسه .. تلقي بشباك "برابيشها" السحرية على شرايين حياته،

تنغرز في شرايين يده تارة وتارةً أخرى في أعلى صدره .. تتمتم وتعزِّم ويعلو صوت عويلها .. تناشد الجنَّ الذي يجري في عروقه مجرى الدم..

أصبح لا مفر من تنقية دمه ثلاث مرات في الأسبوع .. قابع في مستشفى الرملة منذ ثمانية شهور يعاني من الفشل الكلوي .. رجع بالأمس من عملية الغسيل الساعة الثانية عشرة ليلاً .. استبدّ بنا القلق والخوف .. عادة ما تستغرق عملية الغسيل أربع ساعات . خرج بعد الظهر، سألنا عنه الممرضين، قالوا: إن هناك عطلاً في الماكينة .. كثيراً ما تكرر هذا العطل .. ماكينة قديمة عفى عليها الزمن .. تذكر أنها تعطلت في أسبوع واحد ثلاث مرات .. يبقى جزء من دم المريض فيها.. تُرفع عنه البرابيش ويبقى قابضاً على شريانه كالقابض على الجمر .. الدم مضغوط في شرايينه، وفي حالة رفع يده فإن الدم يشبّ بقوة إلى سقف الغرفة .. يتم استدعاء الخبير .. يأتي بعد نصف ساعة على الأقل .. كم يستغرق التصليح؟! حسب همة هذا الخبير .. ساعة، ساعتين، أنت ونصيبك .. لا تستطيع الأكل ولا الشرب ولا النوم .. يتركوك معلّقاً بمزاج هذه الماكينة الساحرة اللعينة .

سألناه صباحاً عن سبب هذا التأخير الطويل؟ كان شاحب الوجه يبدو عليه التعب وكأنه قادمٌ من معركة بعد هزيمة ساحقة .. قال والأسى يحيطه من كل جانب:

- كالعادة تعطّلت المحروسة .. تأخَّر الخبير عند قدومه وتأخَّر في التصليح .. كنت قد قطعت ساعة ونصف .. أكلت فيها بعض الحلويات حتى يتم إخراج سمومها أثناء الغسيل تنفخت كبالون هواء .. جلست انتظر، كانت الساعة تَمرُّ كسنة .. رأيت نجوم الظهر .. انتهوا من التصليح والتفاهم معها الساعة الثامنة .. أنهيت الثانية عشرة منتصف الليل .

ألقيت رأسي على "برشي" وارتميت في أَحضان كوابيس الليل حتى لاح الصباح .. كانت أحلامي هذه الليلة مع الأموات .. رأيت أبي، أمي رحمها الله .. بصراحة أجد نفسي بفضل هذه الماكينة اللعينة أقرب إلى الموت من الحياة ..

قلت له محتداً:

- يجب أن تطالب بتغيير هذه الماكينة؟! .. "هز رأسه وقال بمرارة" ..

- منذ فترة طويلة ونحن نطالب .. يا رجل عندما يشتد بي الأمر ويأخذوني إلى المستشفى الخارجي هناك ماكينة محترمة .. تعاملني برفق.. ألكترونية، هادئة لا تغضب .. أرى فيها الحياة على عكس هذه التي تكشّر عن أنيابها وتريني الموت بأشكال متعددة .. أرى قبري مفتوحاً وكأنها تدفعني إليه .. تلك الماكينة .. أستطيع النوم وهي تقوم بعملها على أكمل وجه .. أنام وأحلم أحلامي الرائعة هناك .. أجدني

أحياناً أتغزّل بها .. يا روح قلبي أنت حياتي .. دمي فداك .. أسفح دمي على أعتابها فتردّه نقياً طاهراً .. لا تضجر ولا تصخب .. لم يحدث أن تعطّلت مرة واحدة .. يلامس حنانها شغاف قلبي .. أرى في الغسيل عملية سهلة مريحة .. أناجيها وأترنّم على صوتها الناعم .. أنسى مصيبتي .. أجد فيها ملاك رحمة تُرَبِّتُ على كتفي وتشد من أزري .. عندما أجلس معها أبني لي مستقبلاً زاهراً .. أتصوّر نفسي وقد خرجت من السجن بصحة جيدة .. يتقبل جسمي زراعة كلية برحابة صدر .. أعود إلى سابق عهدي .. شاباً نشيطاً مرحاً مشرقاً بكل معاني الحياة .. أتزوج فتاة ناعمة وفيّة تشد عضدي وتعينني على نوائب الدهر .. تقف معي وقفة هذه الماكينة الطيّبة .. تنهّد عميقاً وتمتم .. الله كريم ..

قلت له مازحاً:

- ماذا "لو وقعت الفاس في الراس" .. ووقفت زوجتك وقفة الماكينة الساحرة؟! أخرجته بهذا السؤال من دائرة أحلامه .. نظر إلى يديه التي شوّهتها إبر الغسيل وقال بنبرة صارمة ..

- أُطلّقها بالمليون .. لا أستطيع تصوّر إنسانة تتبنّى مثل هذه المواقف.. إنها ستكون مخفر شرطة وبيت الزوجية نظارة تذيقني فيها سوء العذاب.. يا رجل ما أن تقع عيني عليها إلا ويقع الموت في قلبي .. لها

صوت مزعج لا يقل سوءاً عن صاحب أنكر الأصوات .. تتقلّب صور ذاكرتي السيئة في حياتي وأنا جالس في حضرتها .. أتذكّر مغادرة أبي وأمي لهذه الحياة قبل أن أجد طريقي في كنف رعايتهما الصافية .. أتذكر الشقاء والتشرّد .. صفعات الاحتلال .. الفقر والجوع والحرمان.. الانتفاضة والقمع وقهر الاحتلال .. أتحسّس عصيّ الجنود وهي ترنّ على ظهري وبين كتفي .. الاعتقال وعذاب الشَّبْحِ والتحقيق .. السجن ومعاناته الطويلة .. كل صور البؤس والشقاء تتسلّل إلى مخيلتي من خلال نظرات هذه الساحرة .. أتذكّر بداية وقوعي في هذه الكارثة .. يوم كنت في نفحة .. شهر ونصف وأنا أُراجع العيادة .. لم يكترث المشعوذون في تلك العيادة بأعراض المرض التي كانت واضحة .. أخيراً نقلوني إلى مستشفى "سيروكا" .. وجدت أن هذه المعاناة الطويلة التي كتبوها بلغة سريانية غير مفهومة .. لخصها المستشفى في ساعتين بكل دقّة ووضوح .. فشل كلوي خمس وتسعين بالمئة ..

تركته يسهب كما يحلو له، قلت: علَّه يخفّف قليلاً عن الأسى الذي يملأ صدره .. تابع في عرض مشاعره وهو تحت رحمة الساحرة:

- أتذكر الدّم الذي رعف من أنفي وحالة الضغط المرتفع .. حشروني في العيادة على إيقاعات شعوذاتهم اسبوعاً كاملاً .. انقبضتْ نفسي ..

غرقت في عرقي وتقيأت أمعاء بطني .. عندما أوشكوا علـــى سمـــاع أنفاسي الأخيرة، نقلوني إلى المستشفى، في الطريـــق رأيـــت قـــبري مفتوحاً.. كان الألم يدق علي أطنابه .. ضربني بأسلحته الثقيلـــة .. كنت كنحلة طوّحت بها الرياح .. كان الفضـــل في إنقـــاذ حيـــاتي واكتشاف مرضي لقرن موز .. أكلته فقامت قيامتي .. عندها ظهرت أعراض المرض لأنه غنيٌّ بمادة البوتاسيوم التي تثقل عمل الكلى .. إنّـــه فاكهتي المفضلة .. عدت إلى الماكينة .. هذه الساحرة أرميها بنظراتي القاتلة .. أغضب ويجري الدم سريعاً .. أرجوها وأناشدها الرحمـــة .. "ذان من طين وذان من عجين"، صمّاء لا قلب لها .. لا تعرف سوى شفط روحي مع دمي ..

حاولت إرجاعه إلى دائرة الأمل والنظرة المتفائلة:

- ماذا عن زراعة الكلية؟ .. هذه عملية سهلة هذه الأيام ..

- الدور طويل .. المهم أن يصلنا قبل فوات الأوان، فكما تعلـــم إذا طالت فترة الغسيل فإنه يصعب على الجسم تقبل الزراعـــة . خـــارج السجن المجال واسع ومفتوح، أما هنا فليس لنا إلا دورهم اللعـــين .. قدّمت عدة طلبات، وأنتظر الاجابة بفارغ الصبر .. آه .. متى أتخلّص من هذا العذاب المتكرر يوماً بعد يوم .

عَملوا له عمليتين في كل يد ليتمكنوا من وصل البرابيش .. لم تنجح مرتين في اليد اليسرى فتعطلت واصبحت كلّةً لا تقوى على شيء .. أما الثانية فنجحت فيها العملية وأصبح يوصل من شـــريانها بدل شريان الصدّر .. تجده أحياناً موصولاً من يده الصـــالحة واليـــد الأخرى مكبّلة بالسرير وكذلك رجله للضروريات الأمنية .. رِجْـــلٌ واحدة هي الناجية من رحمتهم!

لو أراد شربة ماء لما استطاع .. ما عليه إلا أن يبلّـــد أربـــع ساعات بلا حول ولا قوة .. عملية الغسيل تجري في غرفـــة ضـــيّقة كدورة المياه، وفيها مكتب إداري يقوم عليه موظف .. ضـــاق بهـــم المكان إلا هذه الزاوية الضيّقة ..

الأيام تمر ببطء شديد .. حبسة داخل حبســـة .. برنـــامج قاسٍ.. يوم الغسيل يوم الملحمة .. يصحو صباحاً على هَمّ ثقيل .. يجر نفسه كمن يساق إلى حبل المشنقة .. يجتاز الأربع ســـاعات كمـــن يتسلّق الجبال الشاهقة .. جبل وراء جبل .. يصل في النهاية إلى بساط يتمدد عليه منهك القوى .. يعود ليستريح .. مقيّد الخطوات، مقيـــد الطعام والشراب .. يحسب، يجمع، يطرح .. يجب أن يعـــد .. كـــم كاسة شراب في نهاره وليله .. يجب أن لا تتجاوز اللتر .. الإفطار علبة لبن، نصف حبة بندورة، نصف خيارة، ثلاث قطع خبز، عشر حبات

زيتون .. بإمكانه بين الصبح والظهر إقامة وليمة على حبة تفـــاح .. الغداء: ست إلى تسع ملاعق أرز مع مئة غرام لحم دجاج أو حبش .. بين الظهر والمغرب حفلة على قرص أو قرصين بسكويت أما العشـــاء فبإمكانه البحبحة في بيضة وخمسين غرام لبن، والخمسين الأخيرة له أن يبدلها بخمسين غرام سمك لمرة واحدة فقط في الأسبوع ..

إحدى المرات قال له الطبيب معرِّضاً بإمكانك الأكل مـــن الأصناف .. كل ما تريد .. طار من الفرح .. استبشـــر .. وأخـــيراً فرجت! ولكن الطبيب تابع كلامه: ملعقة فاصوليا، ملعقة بطاطا .. لا تزيد عن ملعقة واحدة ..

سمحوا له بعد مطالبات طويلة بإدخال جلابيّة فضفاضة حتى لا يضرب في البرابيش المزروعة في صدره .. شرّطوا عليه بأن لا يخرج فيها إلى حجرة الغسيل .. لبسها هي وشروطها واعتبرها مـــن أهـــم الانجازات التي وصل إليها ..

يبقى الإنجاز الأعظم في حياته عملية الزراعة .. الآمال كبيرة، الدّور يدور، ومصيره أن يصله أحد الأيام .. يتسمع أخبار الزراعـــة ونقل الأعضاء، متبرّعين عرب تصل أعضاؤهم وتُـــزرع في أجســـاد إسرائيلية .. تُعرض على شاشة التلفاز وتُحيّـــى المشـــاعر الإنســـانية

النبيلة.. إنقاذ حياة الإنسان فوق كل اعتبار .. أي إنسان عـــربي أم يهودي ..

عاد ذات يوم من عملية غسيل شاقة .. غسلوا دماءه وغسلوا أعصابه .. أضرموا فيها نارهم عندما بلّغوه بالرد الحاسم على طلباته .. قالوا له:

- الزراعة مرفوضة في السجون الإسرائيلية .. نحن لا نتحمـــل أيـــة مسؤولية! .. انقبضت تقاطيع وجهه .. ضرب الأســـى جـــذوره في أعماق قلبه .. رأى أيام مستقبلة العجاف .. البراري القاحلة والجبال الجرداء .. الشمس الحارقة تصب شلالاتها على رأسه .. الطريق وعرة والهاوية بدت قريبة .. غابت شمس هذا المستقبل .. أظلمت الـــدنيا!! وفي عمق الظلام لاح لي بصيص أمل .. وجّهت وجهي عليه .. علّقت قلبي به، توجهت إلى من بيده ملكوت السموات والأرض .. توجهت إلى من بيده: (وإذا مرضت فهو يشفين) فرجك يا رب ... يا رب .

فتحي زقوت: "سائق الحافلة"

تمَّ تنقيط الخبر وإيصاله إلى "أبو تيسير" بالتقسيط المريح، نهاية المطاف وصل المضمون كاملاً، تيسير الشاب المقعد، يعاني من شـــلل نصفي منذ صغره، شارك المنتفضين انتفاضتهم بإمكانيّاته المتواضـــعة، كان يراقب تحركات الجيش من موقع استراتيجي يطلّ على مفتـــرق طرق ويزوّد الشباب منه بالإشارات المطلوبة، تَصوَّر بأن الجيش لـــن يشك فيه نظراً لمأساته الصحية لكنهم، حملوه أخيراً هو وعربته وألقوه في الجيب العسكري .. اختلفوا في أمره .. قالوا ماذا نريد من هـــذا العطيل المعوّق؟!

سحبوه .. وضعوه على الحافة .. كانـــت ســـيارة الجيـــب مسرعة.. دفعوه بأرجلهم وقلبوا عربته على الشارع .. قلوب قاسية لا تعرف الرحمة .. تدحرجت العربة وانكفأ على وجهـــه .. ارتضّـــت رجله.. نقلوه إلى المستشفى، وهناك وبعد رحلة طويلة من العلاج تقرّر قطع رجله نتيجة "الغرغرينا" التي تغلغلت فيها، هكذا تكاملت حلقات

هذا الخبر، فأشعلت نيران الحزن في قلبه .. ذلك الولد الـــذي احتـــلَّ أفضل المواقع في قلب أبيه منذ صغره .. كان يســـيطر علـــى مجـــامع روحه.. فهو الولد الأول .. ولي العهد المنتظر .. ابتلي بهـــذا الشـــلل الذي حرمه من الاستمتاع بطفولته .. شاركه أبوه طفولته المشلولة .. أعطاه جهده من أجل العلاج أو تحسين وضعه .. طارد به من مركـــز إلى آخر، في غزة والقدس والأردن وسوريا .. حظي من أبيه بالاهتمام المميّز من بين إخوته التسعة .. دخل السجن و"تيسير" في الثانية عشرة من عمره، تركه لوحده في مصارعة الحياة .. ارتحل عنـــه بعيـــداً في غياهب السجن رغم أنه بقي مزروعاً في وجدانه و لم يَغِبْ عنه لحظـــة واحدة .

كان لهذا الخبر وقع الصاعقة على "أبو تيسير" .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. قطعوا رجله .. ألم تقتنع قلوبهم الحاقدة بشلله؟؟ عندهم يحظى المقعدون باحترام عظيم .. عطاءات مميـــزة مـــن الحكومـــة .. علاجات مجانية وإعفاءات من الجمارك والضرائب، طوابير السيارات تقف في الشارع كي يمر المقعد على راحته .. كم وقفتُ لمقعدين أثناء عملي كسائق باص عندهم؟! أما هؤلاء الأنكاد فإنهم يـــدحرجوه في الشارع .. يا إلهي .. لا أستطيع مجرّد تصور المشهد .. العربة تـــرتطم بالأرض وتتكسّر على رأسه .. تتشقلب وتنكفئ على وجهه .. تختلط

عجلاتها بدمه .. دوّخت هذه المشاهد "أبو تيسير" .. مـــلأت رأســـه وأثارت عواصف اللوعة والحرقة على فراق ولده .. اختزنها وكبتها في أعماقه منذ بداية الحبسة .. منذ أن طوته صحراء نفحة في طيّاتهـــا .. وسط حجرات ضيّقة أطبقت عليها الأســـوار العاليـــة والأســـلاك الشائكة.. سياسة القمع والقهر يتجرّعها كلّ لحظة .. يهون كل هذا أمام ما جرى للولد .. أيُّ إنسان هذا الذي يخرج منه هذا الضـــيع .. أيمشي على رجلين ككل البشر .. أله قلب أم قطعـــة مـــن الحديـــد الصلب؟!

انطوى أبو تيسير على حزنه .. رجعت به ذكرياته إلى كـــل صغيرة وكبيرة .. حلو الحياة ومرّها، قال في نفسه: "لقـــد تحمّلـــت الكثير.. مصائب الواحدة تلو الأخـــرى .. أخـــرج منـــها بصـــبر واحتساب.. أرفع رأسي وأمضي بعزم واصرار .. أمام هذه المصـــيبة فإني أجد نفسي صريعاً تحت مشاعري الملتهبة تجاه ولدي .. حمّى حبّي له التهمت كل المضادات الحيوية .. لم تنفع المسكّنات بل كلما خبت زاد لهيبها .. وجدت نفسي أدور في دائرة محورها "تيسير" .. كلمـــا حاولت الخروج عدت ووجدت نفسي في أقرب دائرة تدور رحاها في حماه .. رحّلت نفسي من رغد الحياة طواعية .. كنت ميسور الحيـــاة صاحب دخل مرتفعا .. لي سيارتي أجرة وعمارة من ثلاث طبقات لا

ينقصني شيء .. اخترت طريق المصاعب مضحياً بالغالي والنفـــيس .. التحمت بالثورة ولبّيت نداء الواجب .. كنت في الثالثة والثلاثين من عمري .. فلم يكن الأمر حماس شباب أو اندفاعاً عاطفياً وإنما كـــان خيار العقل والرّوح الثائرة، بعد ثلاثة عشر عاماً من التفوق في عملي كقائد باص محترف في شركة إيجد .. قررت وضع عبوات ناســفة في تلك الباصات .. فما معنى الحياة بوجود الاحتلال؟! أكلٌ وشرب ونوم وعمل .. وأين العمل؟! في دولة الاحتلال؟! ما هذه الحيـــاة والنـــاس تنصبُّ على رؤوسهم لعنات الاحتلال، قالوا لي في الثورة أنـــت ربّ اسرة كبيرة يكفيك الاهتمام بها وتنشئتها النشأة الوطنيـــة والتربيـــة السليمة .. صمّمت على خيـــاري و لم أســـتمع لنـــداءات القعـــود والتراجع.. أما الأهل والأولاد فلهم الله .

اشتغلت بالزراعة .. زرعت العبوات .. اغتنمت فرصة عملي والثقة التي بنيتها في نفوسهم على مدار سنوات طويلة .. حصـــدت الكثير وأخيراً أصابني الحصاد بخيراته انفجرت عبوة أثناء زرعـــي لهـــا وكانت هناك ثلاثٌ تنتظر اللمسات الأخيرة في باصي الذي أعمـــل عليه، رفعت يدي اليمنى فإذا بها خرقة مدلاّة على عضدي .. حاولت النهوض، وجدت أن ساقي مقسومة إلى قسمين من وسط الفخـــذ .. بطني يترف دماً .. حملوني على اعتبار أني من ضحايا الانفجـــار إلى

مستشفى "يخلوف" .. قبل اجراء العمليات كانت المخابرات تقف عند رأسي، وصلوا إلى العبوات غير الجاهزة .. قبضوا علـــى بصـــماتي، قارنوها مع بصمات سابقة كانت على قنبلـــة وضـــعتها ســـابقاً و لم تنفجر..

هجموا عليّ بتحقيق عنيف الساعة العاشرة ليلاً وقبل إجراء أية عملية لي .. فقدت الوعي، ما لي أرى هذه المصيبة لا تلقي بظلالها كمصيبة ابني .. أيقظوني في الصباح .. صباح الخـــير .. أي خـــير؟! وجدت نفسي في صباح الإجرام .. يدي معلقـــة أمـــامي بعـــد أن قُطعت.. فخذي مربوطة بالحديد .. وبطني، متضامناً مـــع الأعضـــاء المقطوعة والمكسورة، يتأوه ألماً .. ضاعت منه زبائنه التي كان يزودها بمؤونتها .. الآلام الحادة تطلق النار على جسدي في كـــل مكـــان .. وجدت العيون السّاهرة على رأسي، أسئلة الاطمئنان .. قلقون علـــى صحة المعلومات وتقسيم الميراث .. أيوجد في الحياة اكبر مـــن هـــذه المصيبة؟ .. أطرافك تُقطع .. رائحة البنج .. ضنك السلخ والذّبح .. الهجوم الصاروخي من هؤلاء الذين لا يصبرون .. ماذا لو صبروا حتى ألتقط أنفاسي؟ إنها فرصتهم فليحسنوا استغلالها، نقلوني إلى مستشفى "برزلاي" .. استمرَّ التحقيق، كانوا يريدون كل شيء، وأنا لم يكـــن لدي أي شيء .. سوى الشاهد الذي شهد عليَّ من أهلي .. رجلـــي

المكسورة ويدي المقطوعة .. كان بإمكانهم وصل اليد التي كانت معلقة معي .. وجدوا أنّ القطع أسهل على قاعدة "اخلع ضرس الطاحونة واخلع وجعها معها" .. أمام صلابتي وعدم استجابتي لضغوطهم المرهقة استبد بهم الغضب .. رفع أحدهم رجلي وألقاها بعنف .. انكسر الحديد ووقعت البراغي .. أعاد الأطباء تجبيرها بالجبس، ما زلت أعاني منها لغاية اليوم .. العظم غير متطابق مع بعضها لبعض .. ومن "برزلاي" إلى الرملة حيث استمر التحقيق ستة وثلاثين يوماً، ومن هناك إلى مستشفى الرملة القديم حيث واصلتُ رحلة التجبير الوعرة خمسة شهور هانت كل هذه المصائب عدا هذه المصيبة الإضافية لولدي "تيسير" .

حاولوا مساومته على زيارة الأهل الأولى .. ما الذي دفع هذا الرجل الوديع المسالم الذي يجري وراء لقمة عيشه إلى هذا العمل؟! أجابهم بسهولة: الاحتلال .. ألقوا شباكهم .. "ما رأيك أن تعمل معنا ولك أن تعود إلى سابق عهدك .. حرام على حياتك" .. تساوموني على وطنيتي .. الحمد لله، لقد كفاني الله شر أموالكم السوداء .. لم أعمل الذي عملته من أجل المال .. قالوا، "لا تخف سنوفّر لك الحماية.. قلت: أنتم لا تستطيعون حماية أنفسكم أتدرون لماذا؟! لأنكم احتلال!! إذا اردتم الصراحة بشرط أن لا تغضبوا؟! .. قل ما تريد ..

أول حاجة سأقوم بها بعد خروجي من السجن: أن أطخّـــك لأنـــك كنت السبب في قطع يدي؟! تلقيت لكمة في وجهي .. تركتـــهم في حسرتهم وخرجت .. "عاد بأحزانه إلى ولده مرة أخرى: "أية مصيبة هذه التي ألّمت بولدي .. لم أكترث بمصيبة الحكم .. خمس مؤبـــدات وأربعين سنة .. حملتها على كتفي مثل السلام عليكم .. عـــدت إلى السجن أستقبل المهنئين وأشدُّ على أيديهم قبل أن يشدوا على يدي .. جاءني أبي وأمي على شيك الزيارة .. بعد أن قطعوا الحدود .. هم في رفح المصرية وأنا في رفح الفلسطينية .. كانت الأخبار تصـــلهم أولاً بأول .. تصوروني "كومة لحم في قفة" .. لم يصدّق والـــدي عنـــدما رآني.. طلب مني أن أمشي أمامه .. مشيت وضـــحكت .. أراد أن يبتلعني بعينيه .. يقتلعني من خلف الشيك .. يضعني في قلبه ويسير .. أمي غسلت وجهها بدموعها .. كانت نظراتهم السريعة تقـــول لي: اخلع ملابسك نريد أن نراك كما ولدناك .. اطمأن والـــدي علـــى خصوبتي .. ابتسم ابتسامةً قوية ارتجّ لها جسدي .. هذه زيارة نوعيّة لوالدي كشفت عن حجم مصيبتي .. وهناك خبر عندما نقل لي خبر زواج ابنتي بعد أكثر من عشر سنوات من الحبسة .. وصف لي مشهد إنابته عني في زف البنت لعريسها .. قال لي: تمنيت أنها لو لم تخلـــق،

خير من هذا الموقف .. تتوالى المصائب ولكنها دون مصيبة ولدي .. تحملت الكثير، أما هذه فقد غمرتني في أحزانها" .

حاول إخوانه في هذا السجن المنفي التخفيف من حدة هذا الاكتئاب .. يتناوبونه في التفاعل والزيارات .. ذكّروه بمواقفه الصلبة.. قدرته على التحدّي وتجاوز العقبات، المثابرة والروح النشطة، الجبل الذي لا يهزه الريح .. قالوا إن الكف لا تناطح المخرز، ولكنه كان كفاً ناطح مخارز كثيرة .. مخرز الأسر، مخرز الإصابة وآلامها، ومخرز إدارة السجن التي تحاول غرسه في أجساد الأسرى كل وقت وحين .. ذكّروه بمواقفه في إضرابات الطعام .. كان من قادة جبهة حرب الأمعاء الخاوية، ومن صنّاع القرار .. إحدى المرات بعد خذلان الاتفاقيات للإفراج عن الأسرى .. قرروا الإضراب .. تراجعوا، ولكنه أضرب لوحده، نقلوه إلى عسقلان ثم السبع، صباح أحد الأيام بعد حوالي خمسة عشر يوماً من تلقيه خبر ولده، كان متوجهاً لتناول طعام الفطور .. أسفرت أحزانه عن ضربة قاصمة، شعر بأن صخرة تترل عليه من السماء .. ارتطمت في صدره .. صاح في الشرطة .. افتحوا الباب، أذهلت صرخته المحترقة الجميع .. كانت كصرخة القتيل، صبّ فيها أحزان عمره .. وجد نفسه على بوابة العيادة .. ضرب الباب بشدة .. انقطعت أنفاسه، كانت كأنفاس خيل ضابحة خرجت على

التوّ من سباق طويل، من حسن حظه كان الطبيب موجوداً .. جسّ نبضه فوجده بلا نبض، زوده بالأكسجين والإبر المطلوبة، طلبوا لـــه سيارة إسعاف مع طاقم العناية المركّزة، طاروا به على جناح السرعة إلى مستشفى "سيروكا" .. وللحق يقال حظي هذه المرة بعناية فائقـــة وكأنهم يريدون التعويض عن الإهمال الفظيع في بداية أمرهم معه عندما قطعوا يده و لم يحسنوا تجبير رجله .

اشتدت ضغوطات الشباب في السّجن .. صـــعّدوا الوضـــع وطالبوا بإلحاح .. ماذا جرى لأخيهم؟ واصلت إدارة السجن الاتصال مع المستشفى .. قالوا إنه في غرفة العناية المكثفة .. قد يصل من هناك خبرٌ محزنٌ .. وضعه في غاية الخطورة .

أصابته الجلطة في المستشفى ثانية وبشكل أشدّ، كان بطنـــه يصعد باتجاه حلقه يطغى البطن على الصدر فتخرج دفعـــات الـــدم متدفقة من فمه وكأن شراينه الداخلية قد تفجّرت .. الموت يقترب .. يدق أبوابه بعنف .. الجهود متواصلة .. الأجهـــزة تصـــفّر .. تعلـــو الموجات فيها وتهبط .. الإبر تتلاحق .. تُفرغ حملها وتفسح المجـــال لغيرها .. كان معه في نفس الغرفة اثنان في حالة مـــوت ســـريري .. تراهما عيناه في لحظات الصحو ثم تذوي في عالم الغيب، وتهرب مـــن نفس المصير، شيئاً فشيئاً بدأ يستوعب ما يجري .. ثمانية أيام وصدره

في حالة غليان، كان أرضاً لمعركة ضارية تجالدت فيها الجيوش بسيوفها الحادة .. عادت إليه روحه وبدأ يشعر بالتحسن .. بدأت الشمس تلوح في الأفق بعد عاصفة ثلجية هوجاء .. إعصار شديد دمّر الأخضر واليابس .

نقلوه إلى قسم القلب بعد أن خرج صاحباه من الغرفة محمّلين على الأكتاف، حددّوا له طعامه وشرابه ومنعوه من التدخين .. الرجلين مكبّلتين .. ويد مكبلة في السرير أما اليد الثانية فكانت تتعارك مع إبر العلاج .. إثنا عشر يوماً تجمدت فيها أجنابه .. أصبح همّ هذا القيد أشد من همّ السكتة القلبية والشريان المغلق الذي أخبروه عنه .. رغم هذه المعارك الضارية إلا أن مشهد "تيسير" وهو على عربته يُدفع بأرجل الجنود من حافة الجيب، لم يغادر هذا المشهد رأسه، وبقي مستقراً في أعماق قلبه، على الرغم من كل ما جرى لهذا القلب المتعب بالهموم .

بعد أخذٍ وردّ مع الأطباء وشرطة الحراسة، سمحوا له بالمشي مكبلاً مع شرطيٍ مسافة قصيرة، في الممر الداخلي .. وجد صحته تتحسن، طالب بإعادته إلى السجن، كان يشعر وكأن نبة غرست في أرض لا تتناسب معها ..

غربة تضغط على أنفاسه .. النظرات تلقي بتـــهمها عليـــه جزافاً.. إرهابي يتلقى العلاج ويتماثل للشفاء .. حملوه مع آلامـــه إلى مستشفى الرملة .. شعر وكأنه يولد من جديد خرج مـــن أصـــعب مصيبة ألّمت به .. لم يدر أيُّ المصيبتين أعظم .. دحرجة ولده أم جلطة قلبه؟! عاد إلى حياته يجدّد عزائمه ويشحذ همته من جديد .. وجـــد نفسه في معترك الحياة عند أول زيارة .. أخـــبروه عـــن زواج ابنتـــه الثانية.. الخبر المفرح المبكي هكذا هي الحياة وجهان لعملة واحدة .. تتناوب كتناوب الليل والنهار .. الولد الثاني يبحث عـــن شـــريكة حياته.. بنت تبدع وتتفوق في النشاط المنهجي واللامنهجي .. فـــداء آخر العنقود، عمرها عمر الحبس، ثلاثة عشر عاماً، سألها عن العيـــد فقالت:

"مفيش طعم للعيد بدونك!!" وهل جرّبت العيد بوجودي؟! عادت سفينة حياتي تَمخرُ البحر وتواجه التيار .. قلت لنفسي: كمـــا تحمّلت الكثير من أجل فراق حياة الدّعة والقعود عليك أن تواصل هذا الحِمْلَ مهما كلف الثمن .. صحيح أنني كنت متحمّلاً كل ما هو على حسابي، فجاءني من يُحمّلني ما هو على حساب ولدي "تيسير" فينضمّ إلى طريقي ويحمل معي هذا الحمل الثقيل .. إنه لم يعد صغيراً، ما زلت تنظر إليه وكأنه في عمره عند بداية حبستك، أصبح الآن رجلاً مثلك

وقد يلهمه الله القدرة على أن يحمل أكثر منك .. ما يدريك؟! . وجد "أبو تيسير" نفسه في معترك حياة من نوع آخر .. حمل على عاتقه مسؤولية خدمة ورعاية المرضى .. هؤلاء القابعين في مستشفى الرملة.. وكأن أيدي القدر أهّلته لهذه الرعاية .. تجربته مع ولده المريض إلى تجربته في الإصابة والعمليات الجراحية التي أجريت له، وتجربته أخيراً مع السكتة القلبية .. وشريان الحياة المغلق، أنظر إليه وكأنه يقود مثل الحافلة التي كان يقودها خارج الأسر، هذه الحافلة زبائنه فيها مرضى الأسر في سجون الاحتلال .. وهو يعبر بهم طريقاً مليئة بالحواجز .. حواجز البيروقراطية والتأجيل الفظيع لإجراء العمليات الملحّة، والفحوصات الطبيّة، حواجز الأشهر الطويلة التي تستغرق عمليات العلاج .. القيد في أسرّة المستشفيات والحواجز النفسية التي تضغط على الصدور .. سنة الحياة أن نقودها دائماً نحو الأفضل بكل عزم وإصرار، وأجرنا على صبرنا من الكريم بلا حساب .

علي عباس البياتي: "عراقي في سرداب السَّبع"

التقيت به في مستشفى الرملة.. لم أَره ولم أسمع أخباره منذ ست سنوات.. كان أبو نبيل غارقاً في عالم النسيان.. قابعـــاً في ذاك السِّرداب الذي قسَّموه إلى حجرات ضيّقه "إكسات".. كل "إكس X" يتقاسمه إثنان في بئر السبع قسم (٨) يثـــوي في عالمـــه الزَّاخـــر بالذكريات، يُسافر بعيداً في الزمان والمكان.. يصل إلى بغداد بنخيلها وأنهارها، بمآذنها وأسواقها، بمعالمها التي يملؤها التاريخ بأنفاسه.. يزور المشاهد المعَّمدة في روحه، ويعود إلى الثَّغرة التي يرابط فيها.. الحجرة الضيقّة.. حشرت له العالم بقبس يسير من الضَّوء والهواء.. ضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم تعد تفسح له إلاّ تفصيلاً على طـــول قامتـــه.. ويسافر في الزمان من طفولته في بغداد إلى بداية شبابه في بـــيروت، ثم يُكمل الشباب وبداية الكهولة في عالم السجون الضيِّق..

أول ما نسأل عنه هو صحَّة الرجل.. فالشيب الذي جلَّـــل شعر رأسه ولحيته قد يخفي وراءه المفاجآت.. وسنون السجن تُغيِّر ولا

تتغيّر.. تأكل من أعمار سكانها ولا تشبع.. سمعت أزيز صدره وهو يتنَّهد قبل أن يجيب.. ابتسم ابتسامة حاول أن يريني فيها شبابه وقال: الحمد لله على كل حال.. تذكر عندما كنا في عسقلان العام (٩٣) لم أكن أعاني من شيء سوى التهابات في الكلى ومشاكل انسداد البول.. تعايشت معها منذ بداية "الحبسه".. أصبحت من أعزَّ أصدقائي.. بعد خمسة عشر عاماً استطاعوا أن يشخّصوها.. بعدما جربوا عليّ كل ما لديهم من أدوية.. قالوا لي أخيراً: بأنّ الكلى عندي ليس في مكانها الطبيعي.. قلت مستغرباً: خمسة عشر عاماً" منذ بداية اعتقالك سنة (٧٩)، ولغاية (٩٤) وصلوا إلى تعيين سبب معاناتك من آلام الكلى.. لا أكاد أُصدق أذني.. قلت: خمسةَ عشر عاماً أم يوماً .

- خمسة عشر عاماً.. ومنذ خمس سنوات والتنقيب جارٍ عن أمراض أخرى، صبرتُ عليها كثيراً وكان لا بدَّ في النهاية من الكشف عنها . أذكر أنّ الكلى لم تكن تكترث بها كثيراً.. أدرت لها ظهرك.. واصلت نشاطك على أكمل وجه.. كنت رياضياً متميزاً .

بالطبع فأنا عسكري قبل كل شيء.. لم آت من أجل نزهة أو "شمة هوا.." لقد أكلت معسكرات التدريب من أجنابنا.. ما زلت أعاني من شريان البلاستيك المزروع في ساقي منذ كنت في بيروت قبل نزولي دورية إلى فلسطين، كتب الله لي الوقوع في الأسر.. واصلت

نشاطي بهمّة عالية.. حافظت على صحتي وأعدتها إلى صوابها بعد أن تضعضعت أثناء فترة التحقيق العسكري الضعيف الذي أذاقونا فيه الموت مراراً ...

أسمع لصدرك صوتاً... أنفاسك تقطع كلماتك ولا تدعك تكمل جملة .

منذ خمس سنوات داهمتني عدّة مرات أهمها الأزمة التي أشعلت النار في صدري أحياناً أشعر وكأنّ ملك الموت يقبض على روحي وينتظر إذن ربه.. أخيراً ظهرت علينا آثار القمع والغاز الذي كانوا يعموننا به.. وعندي آلام في المعدة وضعف في العيون والبواسير كفاك الله شرّها.. وأخيراً، وإن شاء الله آخراً السكري الذي اجتاحني بعد الاضراب الأخير السنة الماضية .

إذن تحتاج إلى (أفرهول) .

هكذا قالوا لي.. عندي عدة فحوصات جئت من أجلها إن شاء الله .

أكملت العشرين عاماً "أبو نبيل"؟!

في شهر ١١ القادم ٩٩/١١/١٨ .

كيف مضت العشرون عاماً؟ "هزّ رأسه، بدت عيناه وقد غرقت في بحر ذكرياته.. يصارع الموت ويسبح عكس التيارات

الجارفة.. البحر يجرّه بشدة نحو الأعماق السحيقة وهو يجدِّف بكل ما أوتي من قوة.. تنقضي عاصفة وتأتي أُخرى.. تأتيه الأمواج العاتية من كل مكان فيعلِّق عليها.. يمتطيها قبل أنّ تمتطيه.. يهزّ رأسه بعد كل موجة. يتساقط عنه الماء والعرق - يبتسم للبحر والحياة". ماذا أقول عن العشرين عاماً أُحدّثه بالتفصيل المملّ أنه سجين مثلي ولن يطيق سماع وتفصيلات السجون؟ أحدثُّه عن مسلسل مقارعة السَّجان الذي لن ينتهي ولو بقينا على الجلسة هذه عدة أيام؟ أحدّثه عن علاقات الناس في السجون، الفصائل والأفراد. كيف كانت قبل تبادل سنة (٨٥) وكيف أصبحت بعده؟ كيف كانت قبل أوسلو وكيف أصبحت بعده وبعد تداعيات الافراجات والاحباطات؟ أحدّثه عن تجربتي في عسقلان أم في نفحة أم في جنيد أم في السبع؟ عن رحلتي مع المرض وعلاجاتهم التعيسة؟ عشرون عاماً أَتيه ولا أدري من أين أبدأ . " لاحظت شروده من هذا السؤال فحّددت سؤالي" .

أخبرني عن أبرز ما ترك فيك من أثراً بليغاً؟ "انطلق لسانه بسرعة" : زيارة أمي.. يا لها من زيارة ما زال وجداني يناطح السَّحاب بها.. ما زالت أمي أمامي منذ ذلك الوقت.. منذ سبع سنوات، تصوَّر لم يسمحوا لي بزيارتها إلاّ بعد ثلاثة عشر عاماً.. كانت تسافر من بغداد إلى الأردن فيمنعونها من دخول فلسطين تستقصي أخباري من

الأردن.. تذرف دموعها وتبعث سلاماتها وتعود.. توفي أبي في حادثة ملجأ العامرية أثناء القصف الأمريكي على بغداد العام (٩٠) - جاءني الخبر بعد ستة شهور.. وكانت زيارة أمي بعد ذلك بسنة ونصف تقريباً عندما وصلت شيك الزيارة.. ورأيت العباءة السوداء التي تجلّل روحها الطاهرة.. طار عقلي .. نسيت نفسي صحت! هيَ أمي! هي إمّي! هجمت على الشيك وغرقنا في دموعنا.. رغم أني كنت مقرراً على نفسي بأن لا تنزل دموعي.. بعد أن هدأت العاصفة.. لم تهدأ خفّت قليلاً وعادت.. انفجرت القلوب بأحزانها المخزونة.. أخرجت كل رصيدها .. أسأل ما هي أخبار عمي فلان- توفاه الله.. أخبار عمتي فلانة؟ توفاها الله. أخي.. ذهب إلى الحرب و لم يعد.. زيارة شُحنت بأخبار الوفيات ..

كانت زيارة رأيت فيها شيخوخة أُمي- ذوت نضارة وجهها وغاب نور عيونها في ثنايا السنين التي تركت بصماتها بوضوح خبت فيها شمعة حياتها وهي ما زالت في الحياة تُعارك الموت وتصّبر نفسها.. رأت أمي شيبي، رأت عجزي وراء هذا الشيك المقيت فلم تتحمّل.. ضجّت بالبكاء.. حاولت معها بدموعي الصامتة و لم أفلح- توسَّط أحد أفراد الشرطة لضابط الأمن بأن يسمح لي بالسلام عليها دون شيك، رفض بشدّة، طلب منه تمديد الزيارة ورفض.. ساعة بكاء

انقضت بسرعة لم ندر كيف نبدأ أو من أين نبدأ؟! ضاعت الأفكـــار من رؤوسنا وتردّدت الكلمات في حلوقنا. قلتُ: وبعد ذاك لما لم تعد لزيارتك مرّة أخرى؟

منعوها، تأتيني أخبارها عندما تأتي إلى الأردن مـــن أجـــل السؤال عنّي أو عندما يُعتصم على باب الصليب الأحمـــر في الأردن عندما تسمع بإضراب في السجون، في إحدى المرّات أخبرونا بزيـــارة الدوريات.. حضّرت نفسي.. تهيّأت لأمي، تعلم كيف تكون هـــذه التَّهيؤ.. ترتيبات نفسية ومعنوية.. هيجان لعواطف اللقاء مع ســـت الحبايب، ما تبقى لي في هذه الحياة، المهم وصل الزّوار، نزل الشباب ونزلت معهم.. تعانقت الأصابع والتقت الأرواح، تـــذكرت نـــدائي الأول "هيَ أمي"- لم أجدها- عِلق لساني في حلقي الجافّ، خـــرج قلبي من صدري.. تدحرج عند قدمي، قالوا لي: لا يوجد لك زيارة.. برميلاً من الماء المثلّج ألقوه على رأسي، وددت لو أقتل هذا اليهـــودي الذي قال هذه الكلمة اللعينة.. إنّ هذا غير كافٍ لردّ اعتباري، عدت أدراجي أحمل أحزاني حيث كنت قبل أسابيع طويلة.

لم تحاول الاتصال التلفوني وتعلم أنهم سمحـــوا للـــدوريات بالاتصال ولو مرّة كل سنة.

حاولت، قدمت طلبات كثيرة قالوا لي: مستحيل أنت من العراق من دولة معادية- قاتلهم الله- إلى متى؟

بعد أنّ تنتهي المؤبد يسمعوا لك؟ ألم يشبعوا من العشرين عاماً؟! عاد إلى بحر العشرين عاماً يحدث نفسه من جديد. أحدثه عن آلامي التي تقاطعت عليَّ من كل حدب وصوب، أحياناً أراها قد مرّت سريعة خاصة عند أيام الشباب والنشاط والمواجهة- كان القمع يزيدنا عزماً وتصميماً، يشعلون نار التحدي فتحرق كل سياساتهم تحت أقدامنا. في سنة (٩١) قمعونا مرّتين متتاليتين، الغاز والرصاص المطاطي، كسرنا الأبواب وحطّمنا كل شيء، ارتوينا غازاً حتى النُّخاع، حققنا بعض ما نريد ولم نخسر شيئاً، لم يكن هناك ما نخسره.. المواجهة والتحدي تنسيك همومك.. تشعر بقوتك عندما ترعى عدوك رغم ميزان القوى الذي يميل لصالحه، يتهاوى ويبحث عن حلول الوسط، تشعر بالعزة وحلاوة النصر.. أحياناً أخرى أرى اللحظة الواحدة وكأنها قنطار من السنين تلقي بثقلها على رأسي خاصة تلك اللحظات التي يختلف فيها، الأسرى ويدورون حول أنفسهم- أصدقك القول.. مرّت السجون بأيام سجَّل عليها بسواد اللاوعي وتقهقر الروح الأخوية أمام الزحف الأسود للبلديات والتميز بين الداخل والخارج أو بين الجنوب والشمال أو بين فصيل وآخر،

شيَّبتني هذه الأوقات القاسية ولكن الحمد لله كلَّ مرّة كان يعود فيها الوعي للسيطرة على الوضع، واليوم إذا قارناه بالأمس فالأمس أفضل من اليوم، يوجد حالة من الترهّل والإحباط لا بدّ من الوقـــوف لهـــا ومحاولة العودة إلى الجدّ والاجتهاد، قلت له بعد أن أوقفـــتني هـــذه الكلمات الحريصة. ودقّت ناقوس الخطر في روعي: لم تثنِ عزمـــك هذه الأمراض التي ألّمت بك، ما زالت آمالك كبيرة؟! .

بالتأكيد لأنّ الروح ما زالت على حالها، كان فضل الله عليَّ عظيماً.. فتح الله عليَّ باب الدراسة، قرأت الكثير. وكان للدراسات الدينية والروحية الأثر الكبير على مسار حياتي وعلى قوة معنويـــاتي.. حلّقت بروحي عالياً، المرض يصيب الجسد ولا شكّ أنّه يؤثر، ولكن بفضل الله عندي المعنويات ما يغطِّي آمالي وطموحاتي ويزيد . سرحت في عالم هذا الرجل، بالتأكيد قد أخفي الكثير... على عـــادة الرجـــال الذين يعملون في الخفاء وفي العلن يتظاهرون بأنهم لم يقدِّموا شـــيئاً.. أخفى عني المعركة البحرية المتميزة التي اعتقل على أثرها، دورية بحرية فدائية اخترقت دفاعات العدو وأصابت فيها مقتلاً، نسي نفسه في ذكر الشهداء.. عدِّد لي الشهداء الذين التقى بهم.. ما زالوا يظلُّون روحـــه بأرواحهم... حتى أنّ أمراضه التي قطعته بآلامها ليل نهار، مرّ عليها مرّ الكرام.. المماطلة المميتة في العلاج وتشخيص الأمـــراض أزعجتـــه،

ولكنها لم تفلّ من عزيمته.. طلبوه لتصوير المعدة ثم بلّغوه بإعادتـــه إلى سرداب السبع.. سأل عن الفحوصات الأخرى التي وعـــدوه بهـــا.. سيأتي وقتها، متى؟! عندما يأتيك الدَّور.. حبالهم طويلة ونفسه أطول والله المستعان على ما يجرمون .

علاء الدين البازيان: "زيارة إلى بحيرة طبريا"

انتهت استعدادات الزيارة .. وضع لمساته الأخيرة على تجهيزاتها، وقف على باب غرفته ينادي كي يفتحوا له .. بدأت تحضيراته قبل الزيارة بأربع وعشرين ساعة .. شراء الهدايا المتواضعة .. ترتيبها والكتابة عليها .. أُكتب يا "أيمن" هذا القلم لابن أخي محمد وهذا لأخته .. أكتب عليه - إهداء إلى ابنة أختي الحبيبة "أسماء" .. من عمّك علاء البازيان - أبو كمال - يتساءل أيمن:

- دائماً تفضّل "أسماء" وتميّزها عن غيرها؟!

- قلت لك أكثر من مرة .. إنها ليست مجرّد إبنة أخ .. إنها صديقة عمري، تملك زمام قلبي وتتبوأ عرش مملكتي .. إنها أعزّ حبيب على نفسي ..

- هنيئاً لها يا عمّ ..

يحاول "أبو كمال" في بناء مشروعاته أن يعتمد على نفسه .. يخدم نفسه بنفسه دون مساعدة أحد .. أما إذا اضّطر فإنـــه يحـــاول حصرها في أضيق نطاق .. أن تكون أسيراً فإنه يعني أن تتقيّد حركاتك وسكناتك إلى أبعد حدود .. فكيف بك إذا كنت أسيراً وكفيفـــاً في نفس الوقت، جرّب ذلك لمدة خمس دقائق .. أغمض عينيك حاول أن تسافر من "برشك" إلى دورة المياه لقضاء حاجتك .. إحسب معاناتك وعدّد حوادث الطرق التي سوف تداهمك في هذا السفر الطويل .. عد مكانك واحمد الله على أن حباك بالأسر وجعل عينيك حرّة طليقـــة تلتقط كل يوم بلايين الصور الملوّنة والمحمّضة في مختبراتها العملاقة .

يحلق ذقنه لوحده .. يساعده أيمن أو أحد الإخوة المتواجدين في تحديد حدود السوالف والشوارب .. يصبح على حمام دافئ يختار له الوقت المناسب .. يخرج الرياضيون ويستمر النائمون في نـــومهم .. يغتنم "أبو كمال" الفُرصَة كي يلج إلى الحمّام، يحكّ عقله قبل أن يحك جلده .. من سيزورني اليوم؟! أسمـــاء ..؟! الوالـــده ..؟! مجموعـــة استفسارات إياك تنسى أيّ منها يا علاء؟!

أسماء تريد قصة، تريد نكتة .. أخباري لا جديد فيها، فمنذ أربعة عشر عاماً وأنا على نفس المنوال، أقارع ببين جدران الســـجن، أتفاعل مع الأخبال السياسية والأوضاع الاجتماعية التي تحيطني .. أسمع

الأخبار والتحاليل .. الأسرى يثرون كل خبر ويتناولونه من أبعاده ... أسمع وأسمع ثم أدلو بدلوي .. الأخبار راكدةٌ لا جديد فيها .. تختصر الزيارة شيئاً فشيئاً .. ينتهي الحمام وتبدأ رحلة انتقائي الملابس الخاصة بالزيارة .. يتطلّب الأمر فحص الطقس والانتباه، في الأخبار، إلى النشرة الجويّة .. التهيئة النفسية والجسمية تمضي على قَدمٍ وساق .

سيناريو الزيارة تكتمل حواراته .. اللّباس، المقاس المناسب، الهدايا على يمينه مرتبة ترتيباً دقيقاً، شذى عطره يفوح من ثنايا ملابسه.. وقف شامخاً برأسه إلى أعلى .. تعمَّم بنظارةٍ سوداء كبيرة غطت نصف وجهه الأعلى .. غابت حبيبتاه في أعماق بحر لجيّ .. بدت صلعته البيضاء وقد استضاءت بشعرها الخفيف الأبيض اللامع، كأنها طائرة تتأهب للإقلاع .. تاقت إلى سماء الحريّة، ولم تتمكن إلا من قبس يسير تتطلع منه إلى العالم الخارجي عبر هذه الزيارة القصيرة .

فُتح له الباب، خطى خطواته القصيرة والواثقة باتجاه زيارة الأحباب، سأل وهو يحاول أن يلمس درجة الحرارة وأشعة الشمس في وسط الظلام الذي يسبح به:

- كيف الطقس يا أيمن؟!

- جوّ ربيعي دافئ ..

- أشعر بنسمة برد تخترق حصوني .. إرجع وأحضر لي السترة الشتوية.. غرفة الزيارة باردة .

هزّ أيمن رأسه .. تراجع خطوات إلى باب الغرفة .. طلب السترة .. عاد إليه وعلّق:

- هذه علامة الشيخوخة، أبا كمال .. عظامك لم تعد تحتمل البرد .

- "الدفا عفى" يا أيمن .. يا الله هيا بنا .

- ها قد وصلنا الدرج ..

يتحسّس بقدمه الدرجة الأولى، هبط عليها ببطءٍ ثم تابع بخفّة وحيوية تعبّر عن غبطته بالزيارة المنشودة .. وقف على الباب الأوّل ينتظر .. ضغط له أيمن على الزرّ .. رد صوت السماعة .. إلى أين؟ .. إلى الزيارة؟

فُتح الباب وتابع نزول الدرج .. وقف عند استراحة الباب الثاني ثم واصل . وقف عند نقطة التفتيش .. فتّشوه مع هداياه، خلطوا له في كلّ ترتيباته .. فتح الباب قبل الأخير حيث غرفة الانتظار .. عاد أيمن أدراجه بعد أن تركه فيها .. انتظر اكتمال النّصاب، ثلاثون أسيراً في الفوج الواحد .. ثلاثون تَمخر أصواتهم وأصوات زائريهم غرفة الزيارة .. يعلو ضجيجها ويخترق صخبُها النفوس .. تذوب كلمات الأحباب في الآذان وبالكاد يتسنَّى لها الوصول إلى القلب .

وجد "أبو كمال" نفسه وجهاً لوجه أمام "أسماء" وجدّتها .. الأم وحفيدتها .. الحبيبة الكبيرة مع الحبيبة الصغيرة .. تشابكت الأصابع .. تلاشت القبلات على الشيك الحديدي الذي لا يدرك فقه القلوب .. تبادلوا السلامات المعهودة، الابتسامات البرّاقة والكلمات التي تُذوّب القلوب وتخترق حصونها المنيعة .

مشاعر فرحة تشتعلُ من مرارة اللقاء ما تلبث أن تكتنفها المرارة وحزن الفراق .. نشوة عارمة تنتظر ساعة نضوجها القريبة .. تنضج فيقطفها السجان بمنجله الأسود .. يدور به على عنق الأسير ويعيده إلى سلاسل قيده .

كانت "أسماء" قبطان هذه الزيارة .. مسكت بدفّتها بحزم وشرعت تحدّث بطلاقة ..

- "أخذنا عمتي رحلة .. رحلة بعيدة كثير .. إلى بحيرة طبرية، مَيْ وشجر وسمك، لعبنا وسبحنا .. شوّينا اللحم والدجاج، أكلنا وشبعنا، شربنا الكولا، رحنا طريق الغور، مليانة برائحة الورد وزهر البرتقال .. يا الله يا عمي ما أجمل فلسطين .. الجوّ دافئ وحلو كثير .. يا ريت يا عمي لو كنت معنا" .

غرق "أبو كمال" في ثنايا كلمات حبيبته الصغيرة .. هذا الوجه الصغير الذي يتأرجح بين جدائله يشع على عالم الظلام الذي

يطبق عليه من كل جانب .. كان يرى حُزمةً من الضياء تنطلق مـــن هذا الوجه البريء فتصيب قلبه .. يتناثر الضياء فتبرق دنياه .. تتكاثف السحب، تهطل أمطار ذكرياته العزيزة وتنزل جبال الثلج والـــبرد .. السوق الضيقة، هرايس، حلويات، قطايف، فوانيس رمضان، ليـــالي القدر وبريق الملائكة التي تعانق أرواح الصالحين، النشاط المدرســـي، فتوّتي الشرسة التي كنت أتميز بها عن غيري .. كنا نتغلب على فـــرق الحارات المجاورة .. نفوز بعضلاتنا ونفرض النتيجة التي نريدها، اشتعل شبابي وتعاظمتْ فتوّتي، كانت الحياة واسعة، جميلة، تلـــبس أحســـن حليها خاصة هذه الأيام الربيعية .. تنعش القلب بدفء جوّها وجمال طبيعتها الخلاّبة .. الرحلات المدرسية كانت بداية الربيع، نغـــادر إلى النبي موسى، أريحا، البحر الميت، طبريا؟! لا لم أصل إلى ما وصلت إليه "أسماء" .. تستمر في حديثها المضيء، تضيء علـــيّ عـــالم ذكريـــاتي القديمة.. تحضره على طبق من ذهب، لا أريد أن أتذكر تلك اللحظة التي فقدت فيها بصري .. تقابل الصفّانْ واحتدمت المعركة .. صف صور شبابي وعالمي المنير، مقابل صف سجني وعالمي المظلم .. أجد أن عالمي القديم يتلاشى أمام زحف عالمي الجديد، رغم كـــل محـــاولات الانعاش من حبيبتي "أسماء"، ما زلت أسمع دويّ الانفجار .. انفجرت العبوة التي كنت أعدّها بعد التحاقي بصفوف الفدائيين .. غبت عـــن

نفسي وعن الدنيا .. وجدت نفسي و لم أجد الدنيا .. ناشدت حبيبتي وأنا قابع على سرير الموت بعد أن اجتزت عدة عمليات جراحية .. لم تسمع مناشداتي ولا توسلاتي لها .. وجدتها قد هجرتني إلى الأبد .. لم تترك لي كلمة وداع .. لم توصيني بنصائحها وإرشاداتها التي لم تبخل عليّ بها طيلة أيام حياتي معها .. أصبحت كمن يريد أن يتعرّف على تفاصيل حاسوب الكتروني دون أيّ دليل أو معرفة مسبقة .. غرقت في الظلام وطارت بي روحي عبر أنفاق ودهاليز لا نهاية لهـــا .. رفعـــت إحدى يَدَي .. وضعت راحتي على جبيني .. أنزلتها باتجاه حبيـــبتي، تردّدتُ .. هيأتُ شجاعتي لتلقى الأمر بأريحيّةٍ تامَّةٍ رغم أنهم أرادوا أن يصدموني بها، قالوا بوقاحة تامة: فقدت بصرك وستقطع رجلك! كنت أريد أن أتأكد بأطراف يدي .. بعد تردّد طويل هبطت يدي باتجـــاه تلك الأنوار .. وجدتها صحراء قاحلة بلا عيون .. أين ذهب المـــاء؟! من رَدَمَ عيونها وقتل الحياة فيها؟! حاولوا مساومتي على إحدى عـــينيّ التي لم تغادر مكانها .. علاج هذه العين مقابل الاعتراف؟! الســـجن وانطفاء العين أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه .. كم تمنيت الشهادة في تلك اللحظات .. كانت روحي ترفرف بعيداً عن عالم الجسد والمادة .

لاحظت جدّة أسماء جبين ولدها الـــذي تصـــبب عرقـــاً .. ضغطت على يد حفيدتها، أرادت إنقاذ الموقف .. همست:

- إحكي له عن علاماتك في المدرسة؟ ردّت بسرعة .

- بس أخَلِّص من الرحلة ..؟! قل لي عمي .. عندما تخرج من السجن أريدُ منك أن تأخذني رحلة كل يوم جمعة! - إن شاء الله .. سآخذك إلى حديقة الحيوانات .

- هل تنتظريني حتى أخرج من السجن؟!

- سأنتظرك وسأذهب معك إلى أمريكا حيث كان أبي، هزّت جدَّتها رأسها .. نزلت دمعتها وهي تمسِّد على رأس حفيدتها أرادت أن تفصح عن أحزانها فلم تستطع لوجود حفيدتها .. وزَّعت أحزانها بين والد هذه الحفيدة التي لاقته منيّته في غربته الطويلة .. ووضعت ما تبقّى من ثقل أحزانها هنا على أعتاب هذا السجن البليد .. تذكرُ عندما جاءوا بها مع والده للاطمئنان عليه في المستشفى بعد إصابته مباشرة .. غطّى وجهه بقطعة قماش .. كان غارقاً في دمائه .. أخفى فقدان بصره .. قال لهم إنهم منعوه من كشف وجهه .. اكتفوا برؤية الإصابات الظاهرة واللفافات البيضاء التي كانت تغطي يديه وساقيه ورأسه .. سمعوا صوته وسمع صوت بكائهم .. سحبوهم من عنده وبقي شبح أُمّه يلازمه في أعماقه .. أبيضّت عيونهم من الحزن بعد أن تأكدوا من فقدان بصره ..

وتذكَّروا عندما خرج لهم من حبسته الأولى في تبادل الأَسرى سنة ١٩٨٥م ثم عاد ليحمل الحكم المؤبد من جديد بعد فترة وجيزة .. يفقد البصر وتبقى البصيرة المقاومة التي تفعل فعلها في هـذه الـنفس الأبيّة، فترفض الانصياع لمراسيم الاحتلال البغيض .. تواصـل مـع النضال، تواصل الروح مع الجسد .. لم يُفَتِّتْ من عضـده فقـدانُ بصره.. بل رفع من درجات التحدي أضعافاً مضـاعفة . أصـبحت تداعيات التراجع والفتور عن آداء واجب المقاومة تبدو إليه ممكنة في حالة واحد فقط .. حالة زوال الظلام الذي يغـرق فيـه، أو زوال الاحتلال الذي أغرق البلاد والعباد في ظلامه .. هو هكذا عنيد لا يلين ولا ينثني أمام العواصف مهما بلغت من هيجانها .

أوشكت الزيارة على الانتهاء .. رفضوا مراراً إعطاءه زيارة بلا شيك يلامس فيها بعيون راحته أهداب "أسماء" أو راحة أمه، أسماء تحدثت وتحدثت وعمّها يصارع أمواج ذكرياته .. موج فوق مـوج يلتحفها ويتدثّر بهديرها الجارف .. تتغلّب أيامه العجاف على أيّامـه السِّمان .. قدّم لها وصاياه المعهودة .. المدرسة .. جدتك .. وجدك .. أرسل معها تحياته وسلاماته، انسحب بهدوء بعد أن قَبّل أصابع أمه .. وحاول أن يرمي بقبلة حارة إلى حبيبته الصغيرة قبّل الحديد علَّه يوصل إليها حنينه بأمانة لم يعهدها فيه من قبل .

انتهى حظّه من عالمه الخارجي .. عاد إلى السجن والسجان، يبحر ذيول العشرين عاماً .. مضت بمراراتها القاتمة في ثنايا الموت البطيء يجدد صلته بالحياة والعالم الخارجي لحظات الزيارة ثم يعود إلى أحشاء مأساته .. يُشوى في بطن الحوت الذي يبلع ولا يشبع .. يقاوم عصارته النتنة بكلّ ضراوة ويضيء شمعة في ظلماته الثلاثة إضافة إلى ظلمة رابعة كانت من نصيبه وحده .

اجتاز الأبواب الثلاثة .. وقف في الساحة على ضفّة التيار البشري الذي يدور دورته .. جاءه "أيمن" مع صديق آخر .. وضعوا أيديهم بيديه والتحموا بالركب الدائر، كان كمن يعود من فلك الخارج إلى فلك الداخل .. .. كانت ظلمة أضاءت له حبيبته الصغيرة .. هذا ظلام حالك .. جعل يمشي ويترنّم بوقع خطواته على أنغام صوت "أسماء" الذي ما زال يتردّد في جنبات صدره ..

- كيف الزيارة "أبو كمال"؟

- الحمد لله .

كانت زيارة نوعية .. رحت فيها بعيداً .. رحت إلى طبريا وأبعد من ذلك بكثير .

ثم شرع يطوف بهم في عالم الزيارة الفسيح .

ربحي هرشة: "أمام الضمير المفقود"

ربطوا يده بيدي ورجله برجلي .. أنزلونا إلى المحكمة المركزية في بئر السبع .. كانت هذه المحكمة للإستئناف على حكم اللجنة التي حرمتنا من الإفراج بعد انقضاء ثلثي فترة محموميتنا .. كان "أبو همّام" شاحباً، هزيلاً، يجر نفسه كأنه شيخ قد أكل منه الدهر وشرب .. كان في بداية العقد الرابع رغم أنه بدا وكأنه في العقد السابع أو الثامن .. لم يكن إصفرار وجهه وذهول عينيه خوفاً من عواقب المحكمة .. جبهته الداخلية متماسكة، تقاتل بصلابة وبعزيمة لا تلين .. يقينه، بحكمة الله ولطفه في قضائه، راسخ .. يمشي على وقع السلاسل بتؤدة ووقـــار .. يقطع المسافات من النَّظارة إلى قاعة المحكمة بخطوات قصـــيرة، يزنهـــا ميزاناً دقيقاً كالنجم الذي يقطع مراحله بصمت .. قطع هذه الرحلـــة كما كان يقطع في الحبسة .. يوماً وراء يوم وشهراً وراء شهر ...

كانت ضعضعة جسمه وكان تخاور قواه بعـــد أن ســـكنته الآلام.. في سنته الثامنة للحبسة اجتاحت جسمه رياح المرض العاتية ..

ومنذ ذلك الحين وهو يصارع ويكابد، الفحص تلو الآخر والعلاج تلو العلاج والحال على ما هو، لم يطرأ أي تحسن يُذكر، وإنما التراجع والتدهور السريع .. سنتان وهو يُقيّءُ ما في بطنه .. معدته لا تحتمل الطعام .. عاد إلى طفولته الأولى .. حليب لا يكاد يسيغه .. أي إضافة أخرى تعرّضه للقيء والعذاب الشديد .. يحضّر لإخوانه المرضى الطعام ويتفنن في إتقان صنعه .. يضعه بين أيديهم ثم ينسحب بهدوء .. أي لقمة تدفعه للقيء وأن تقلب معدته رأساً على عقب ..

احتل مكاناً دائماً في مستشفى الرملة على أمل تحسين الحال، ولما وجد حالته تزداد سوءاً قرّر متابعة هذه المحكمة .. سألته عن توقّعاته .. توقف قليلاً، نظر إلى الشرطة الذين يحيطوننا بأسلحتهم الرشاشة وقال: أنالا أتوقع من محاكمهم خيراً .. أما حسب المنطق والقانون فإن حجّتي قوية .. لا يوجد أي مبرّر لإستمرار إعتقالي .. في الأصل كان حكمي جائراً .. لا تستحق قضيتي حكم أشهر .. حشرونا على ذمة قضية لا ناقة لنا فيها ولا بعير .. كان اعتقالي في البداية في سجن "مجدّو" حيث كان من المتوقع لحبستي أن لا تستمر أكثر من عدة شهور .. ألحقونا ظلماً وزوراً بمجموعة ذات أحكام عالية .. حملت الحكم المؤبد ثم بعد مسيرة طويلة مضنية في البوسطات

والمحاكم، تم تخفيض الحكم إلى اثنتي عشرة سنة، محاكم قراقوش يتراوح الحكم فيها من البراءة إلى المؤبد .. ماذا نتوقع منهم اليوم؟!

دخلنا قاعة المحكمة .. جلس في صدرها ثلاثة قضاة يترقبون فريستهم بعيون جارحة .. جلسنا في مقدمة الصفوف الخاوية .. محكمة بدون جمهور .. كانت المحامية تقلّب أوراق ملفاتنا .. وقف المدّعي العام يترنم بكلماته المنكرة: كل التقارير التي لديّ تشير بأن المدعو يمارس نشاطات قيادية داخل السجن .. المخابرات ومصلحة السجون تقول بأن الإفراج عنه يشكل خطراً خارج السجن .. لذلك فإني أطلب من حضرات القضاة إبقاءه في السجن بقية حكمه كاملة .. ووقفت المحامية تناشد الضمير الإنساني المفقود:

- إن موكّلي لا يمارس أي نشاط محظور .. لا يوجد في ملفه أي مخالفة .. إدعاء المخابرات وإدارة السجن لا يوجد عليه أي دليل، إنّني أطالبهم بالدليل .. (عوى المدعي العام .. بين أيدي القضاة تقرير سرّي) ..

هز القضاة رؤوسهم .. تراجعت المحامية في حدّة كلامها، خفّضت من ضرباتها وقالت بهدوء:

- حضرات القضاة .. إن موكّلي في حالة صحّية خطرة .. لدي التقارير الطبية والإثباتات الكافية .. هذا تقرير من مستشفى الرملة ..

هذا تقرير من عيادة السجن .. إنه يعاني من إنسداد في فم المعـــدة لا تستقبل الطعام .. في التقرير يحتاج إلى عملية نفخ للمريء، وفي حالة بروز أي خلل يجب شق الصدر بعملية جراحية نسبة نجاحها لا تزيـــد عن خمسة بالمئة .. أصابه الهزال والضعف الشديد كما ترون .. كان وزنه يقارب التسعين، والآن لا يصل إلى الستين .. وضعه الصـــحي يتدهور يوماً بعد يوم .. العلاج كما تعلمون لم يجد معه نفعاً .. أطلب لموكلي الإفراج الفوري حتى يستطيع متابعة العلاج خارج السجن .. داخل السجن حالته لا تبشّر بخير .. لا داعي مطلقاً لإستمرار اعتقاله.. أمضى عشر سنوات على ذمة قضية بسيطة لا يستحق عليهـــا هـــذا الحكم .. آن الأوان أن يُعيد حضرات القضاة للعدالة مجراهـــا .. إني أناشد عدالتكم وإنسانيتكم أن تنظروا لهذا الأسير الذي عانى من الظلم الطويل وهو الآن يعاني من قسوة المرض والآلام المبرحة .. ويشاركني في هذه المناشدة مؤسسات قانونية تتابع حقوق الإنسان الفلسطيني .. لقد ملأت مناشداتها صفحات الجرائد .. وضع هذا الأسير يقلق الرأي العام الفلسطيني، وفي هذه المرحلة نحن بأشد الحاجة لتـــدعيم مســـيرة السلام .. أطلب أن تصدروا أوامركم بالإفراج عنه فوراً .

مالت رؤوس القضاة على بعضها البعض .. تناجوا بـــالإثم والعدوان .. ضربوا بعرض الحائط كل الأبعـــاد الإنســـانية .. تـــلا

أوسطهم القرار من بين أسنانه المتناثرة .. تحركت صلعته القاحلة تُعلن شحّها وتتضامن مع ما يخرج من أسفلها من كلمات جوفـــاء .. إن مرضه لا يشكل خطراً على حياته .. عليه أن يكمل حكمه كاملاً .. إن الأبعاد الإنسانية في الملف لا تعفي المتهم من تبعـــات المخالفـــات القانونية التي قام بها ..

هتفت المحامية ..

- ألا تكفيه العشر سنوات؟ ..

أردف القاضي بوجه متجهّم وكأنه نذير حرب ..

- الملف الثاني ..

أطرقت رأسي .. قرأت نتيجة قرارهم سلفاً .. سمعت "أبـــو همـــام" يتمتم..

- حسبنا الله ونعم الوكيل ..

(أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا)

صدق الله العظيم

جلال رمّانة: "من أصحاب الأخدود"

وصلت كتلة لحمية مشويّة إلى مستشفى الرملة .. منذ سنين طويلة والمرضى القابعون هناك لم تر أعينهم لحماً مشوياً .. كانوا في حالة شوق شديد لطعام الشواء .. ارتدّت إليهم أبصارهم وغرقوا في دهشة عظيمة، عميقة ومذهلة زاغت فيها الأبصار .. كانت هذه الكتلة المشويّة تأخذ شكل إنسان .. كانت كتمثال الجبص قد المصنوع بإهمال .. تعرّجت النتوءات اللّحمية بشكل بارز ومخيف .. غادرت أخاديدها، عُقدت حواجب غضبها، أخرجت ماءها وصديدها، اختلط جلدها بلحمها، وكشفت السِّتر الذي خفي فيها .

كان رأس في هذه الكتلة .. رأس وضع على صدر المنسف حتى يظهر كرم الضيافة .. قرضوا من أذنه اليسرى .. كانوا كأنهم قد غفلوا عن جنبه الأيسر فالتهمته النيران .. كان كأنّهُ أُلقي في نار النمرود فلم تكن عليه برداً وسلاماً .. بل كانت ناراً وجحيماً .. أكلته من كلِّ جانب .. كأرض أصابها حسبانٌ من السماء فأصبحت

صعيداً زلقا .. هكذا عاين المرضى ضيفهم عند نزوله مترلهم .. كانوا بأشدّ الحاجة إلى أن يُطعَّم المستشفى بالعناصر الشابّة القويّة كي تعين الحالات الصعبة على مرضها .. تخدمها وترفع معنوياتها، إلا أنّ هـــذا الجثمان يحتاج إلى طاقم كامل للقيام على خدمته .. إنهم شديدو الرغبة للقيام بهذه المهمة إلا أن "العين بصيرة واليد قصيرة" .. مع هذا فقـــد اجتاحتهم رياح التصميم لعمل المستحيل .

لم يتصوّر "أبو حسن" بأن هذا الجسم المسجّى في غرفته هو لجلال رمّانة .. ذلك الشاب الذي تابع أخباره قبل عدة شهور .. قالوا في الأخبار بأن سيارة كانت قد أُعدّت للتفجير قد احترقت بسائقها في القدس .. ها هو بين يديه يتلظّى في جحيم آلامه .. تصوّر الحريق لم ينطفئ من يومها .. ما زال يصبُّ بشواظه في أعماق هذا الرجـــل .. غامت عيون "أبو الحسن" .. سالت دموعه .. هانت عليـــه آلامـــه وأمراضه القاسية أمام هذا الجسد المحترق .. رمقه "جلال" بعيونه التي يشعُّ منها الصبر والتسليم لأمر الله .. "هتف به بصوت مخنوق":

- فصبر جميل والله المستعان .. يا شيخ

حملوه مع آلامه حتى سجّوه على سرير كان فاغراً فاهً ويقف محتفّزاً في انتظاره .. التفّوا حوله .. سمعوا صوته الذي كان يخرج من أعماق بئر لجّي .. أرهفوا له آذانهم .. إن كومة اللّحم هذه تـــتكلم!!

العيون تلمع في محاجرها، تدور عليهم وترسل إليهم رسائل شوق ومحبّة.. عرّفوه على أنفسهم مسرعين .. كانوا يريدون سبر شخصية هذا الرجل الفريد .. ما الذي جرى له؟! لماذا احترقت به السيارة بالضبط؟! أين الخلل؟! أخذوا حوله مواقعهم وعلامات الاستفهام ترتسم في عقولهم وقلوبهم .. قرأها بسهولة .. تعالى على نيرانه التي تضرب بسياطها جسده المهترئ .. قال له "أبو حسن" بشفقة أمّ على ولدها:

- ما رأيك أن تنام الآن وترتاح من عناء السّفر .

"أجاب مسرعاً":

- أنّى لي النوم .. هل توفّر لي آلامي هدوءاً للنوم، إنها آلام مشاغبة لا ترحم .. لا تنام ولا تنيم ..

"أبو همّام" و"أبو ياسر" لاذا في صمت مخيف .. اقشعرّت أبدانهما لحظة وصوله .. ما زالت ترتجف قلوبهما .. تتعاقب صور النار ذات الوقود.. الجسد الذي غرق في لهيبها .. الآلام التي تقبض على زمام روحه، عقدت تشوّهات هذا الجسد ألسنتهم وباتت أعينهم تدور كالذي يغشى عليه من الموت ..

خرج "أبو حسن" عن جبهة الصمت .. لم يتمالك أعصابه.. عبر بلسانه وقال:

- هل عالجوك؟! ماذا فعلوا معك بعد إنقاذك من الحريق؟ تراهم قـــد تفنّنوا في تعذيبك!!

رفع "جلال" رأسه قليلاً .. أشار إليهم بوضع وسادة يسند بها رأسه .. ابتسم ابتسامة الضاحك الباكي .. لم تفهم ابتسامته إلا مـــن بريق عينيه .. بدأت كلماته تخرج ببطء شديد .. كانت كأنها تـــدفع على ميدان الموت وهي مكرهة ..

هذه قصة طويلة .. بدأت عندما وقفت بسيارتي في شـــارع يافا في القدس .. وجدت نفسي في خضم نيران عاتية تحيطني من كل جانب .. دخلت عالم الموت .. غبت عن وعيي .. غرقت في غيبوبة يوماً أو بعض يوم كمقولة أصحاب الكهف .. لا أدري كم كانت .. فجأة شعرت بأني في عالم أستطيع التواصل مع مفرداته .. حاولت فك رموزها .. وقع الخوف في قلبي .. هل أفتح عينيّ؟ هل أنـــا في حيـــاة البرزخ؟ .. (القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار).. النار ما زالت تتميّز من الغيظ وترميني بقضّ الآلام وقضيضها .. إذن قد أكون في حفرة من حفر النار، لطفك يا رب .. قد أفـــتح عـــينيّ فأجد أمامي منكر ونكير أو الشجاع الأقوع، قد أجد جنّة ربي ولكن الجنة لا يوجد فيها آلام .. بعد تردد طويل، تمالكت نفسي، شـــددت على أعصابي وتوكلت على ربي .. فتحت عينيّ فإذا بممرّضة تقف إلى

جواري وترقبني من كل جانب .. عرفت أني في مستشفى وأني ما زلت في هذه الدنيا .. أيقنت بأني بسبعة أرواح كالقطط .. خيّل إليّ بأنّ هذه الممرضة يابانية .. سألتها فضحكت .. نقلوني إلى الطابق السادس حيث العلاج المكثّف .. وصلني محقق المخابرات ليعالجني من خلال خبراته الأمنيّة .. وللحق أقول أنه كان لطيفاً أو مثّل عليّ ذلك بادئ الأمر .. كان يطعمني ويسقيني .. كانت يداي معصوبتين فكانتا يداه عيوناً لي .. كانت له حاجة يريد الوصول إليها بأقصر الطرق .. قال لي:

- أنت متهم بمحاولة تفجير سيارة مفخخة في سوق "محني يهودا" ..

رددت له اتهامه في نحره .. قلت له:

- لماذا فجّرتم بي سيارتي؟! ماذا تريدون مني؟!

تحوّل الحمل الوديع .. رجل الخير والإحسان، ملاك الرحمة، إلى ضبع جائع ينشب أنيابه في فريسته .. تحول بسرعة إلى شيطان مريد .. أيعذّبني لأخذ الاعتراف الذي يريد .. الجسد يتعذّب ولا يتسع لأية إضافة في العذاب .. ومع هذا حاول هوايته اللعينة .. ضغط بالوسادة على وجهي .. غابت عنّي أنفاسي .. أحداث انفجارات دوت في أعماقي .. كبتُّها و لم أخفّف عنه غيظه بأية أنّة .. تعملقتُ بفضل ربي على هذا القزم المتروع من كل صفة إنسانية .. ذرع الغرفة

والغضب يتأرجح به .. ضرب كفاً بكف .. أغلق النافذة وفتح المكيّف على الهواء الساخن .. كان يتحرّك بعصبية وجنون .. لم يستوعب أن يرى إنساناً محروقاً من رأسه حتى أخمص قدميه يحافظ على مقاومة تردّ كيده في نحره، كنّا في شهر آب اللهّاب .. اجتاحتني سحب الهواء الساخن من المكيّف الملعون .. صعّدت من درجة إحتراقي .. كانت درجة ثالثة فأصبحت أرى أنها رابعة أو خامسة على إيقاعات التيارات الحارّة .. الممرضات يضعن الثلج تحت إبطي ويسكبن الماء البارد على صدري .. يناشدون درجة حرارتي التي بلغت اثنتين وأربعين أن تنزل قليلاً .. هذا "المحترم" لا يلقي بالاً إلاّ إلى الاعتراف وتلبيس ما يريد من أوهامه الباطلة .. كنتُ أشعر وكأن سقف جمجمتي قد غادر رأسي .. دماغي تتشظى في كل الاتجاهات، كنت كمن يهوى في واد سحيق فيتقطع إرباً وتأكل الطَّير من رأسه. وهذا الغبي يسأل أسئلته الحمقاء .. كانت الحرارة تشتدُّ عليّ فأهذي بما هبّ ودبّ .. أعود إلى المخيم .. حياة الطفولة التي لم يكن فيها طفولة .. السعي وراء الرزق والتردُّد بين المدرسة وسوق الخضار .. أزقة المخيم التي لا ترحم وصفعات الاحتلال التي تطال كرامتنا وتزاحمنا في أدنى حقوقنا الإنسانية .. تجرّدنا من كل شيء وتسلب منّا

أملاكنا، ديارنا، إرادتنا وأرواحنا .. لا تريدنا إلا جسداً خاوياً تفرِّغ به لعناتها وأحقادها ..

أنصت الجميع كأن على رؤوسهم الطير .. أنصت "أبو حسن" كتلميذ نجيب .. عقد لسانه وخاف من أن تُظهر كلماته دموع عينيه وأحزان صدره .. شعر "جلال" بأن القوم يريدونه متابعة قصته كاملة .. حار في أمره .. خانته لغته محدودة المعاني والكلمات .. أنّى له أن يصيب حقيقة آلامه .. "الذي يأكل العصيّ ليس كالذي يعدها" .. تابع يقصّ عليهم نبأه الأليم.

زارتني المحامية "ليئا تسيمل" .. كنت في حالة هذيان، لم أركّز معها في إجاباتي .. طالبت لي من المحكمة بطبيب نفسي .. حضر الطبيب .. كان دباً ماكراً .. كتب تقريره وانصرف .. فيما بعد استغلّت محكمة اللّد العسكرية هذا التقرير ضدّي .. كم كنت في ذاك الوقت العصيب بحاجة إلى من يقف معي .. تزورني في خيالي صور أمي وإخواني .. أستبشر وأتفاعل وأتحرَّ .. كانت كلمات المواساة في حينها تعدل الدنيا وما فيها .. رغم أن ذكر الله كان زادي .. وعون الله لم يغب عنّي لحظة واحدة .. إلاّ أن كلمة مواساة لها معناها ووقعها في النفس .. قالت لي فتاة عربية اجتازت الحصار المفروض عليّ .. "يروح الشر عنك يا خوي" .. ترنّمت روحي على أنغام هذه الكلمة

الساعات الطوال .. كم كانت جميلة كلمة "يـــاخوي" .. حشـــدت خلفها كل أهلي وربعي وإخواني .. أثلجت صدري بارك الله فيها.

نقلوني إلى غرفة العمليات تحت الحراسة المسلحة .. دخـــل معي شرطي بلباس ممرّض .. أمره الطبيب بفك قيودي من السرير .. أخبرني الطبيب بقرار بتر أصابع يدي اليمنى .. طلب مـــوافقتي .. لم يكن أمامي خيار آخر وافقت واحتسبتها عند الله علّها تســبقني إلى الجنّة .. خدّروني ورحتُ في عالم الغيب .. أفقت من ضربات البـــنج فوجدت اللفافات البيضاء قد ملأت جسمي .. يداي ورجـــلاي .. بطني وظهري .. سلخوا قطع كبيرة من جلد الفخذ والبطن وزرعوها في يدي اليمنى والكتف والخاصرة، كانت عملية زراعة عشوائية قـــد طالت مناطق شاسعة من جلدي علمت - فيما بعد - أنهـــم بعـــدما عجزوا عن الوصول إلى مآربهم التفوا على أقرب المقربين إلى .. أختي وزوجتي .. اعتقلوهم ثم أفرجوا عنهم.. لم يأخذوا منـــهم حقـــاً ولا باطلاً.

زارني طبيب إيرلندي تابع للصليب الأحمر .. احتجّ بشـــدة على القيود التي ربطت رجلاي بالسرير كعادتهم دائماً .. واجهـــوه بذرائعهم المعهودة .. الأمن، الهرب .. يا جماعـــة هـــذا لا يســـتطيع الوقوف .. ولا حتى الزّحف .. كيف سيهرب؟

ضربوا بكلامه عرض الحائط .. أعطاني بطاقته للاتصال به وقت الحاجة .. صادرها المحقق فوراً بعد أن اختفى الطبيب عن الأنظار.

أما عن آلامي التي أسأل الله أن لا يذيقها لمسلم فقد كان أشدّها عندما دخلت عليَّ أربع ممرضات .. أخبروني بأني سوف أنقل إلى هنا (مستشفى الرملة) .. بدأوا بنزع اللفافات البيضاء .. كانت قد تصلّبت بعد أن امتصت الدم من لحمي ..

سلخوها عن جلدي المسلوخ .. سحبوها وسحبوا معها روحي رغم جَلَدي ومحاولاتي الشديدة كظم ألمي إلا أني ملأت المستشفى صراخاً .. سخرت مني شرطية حاولت تقليد صراخي والرقص على جراحي .. رأيت قوله تعالى: "فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون" .. أضاءت لي هذه الآية ظلماتهم التي أحاطوني بها.. أصدقكم القول أني شعرت بالموت عدّة مرّات .. نازعت روحي أشلاء جسدي ولكنّ أجل الله لم يأتِ بعد .. "قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود".

كبَّلوني بأصفادهم .. حملوني في سيارة إسعاف ثم هبطوا بي إلى هنا .. تشاهدت عدّة مرّات، كانت تتلوى روحي في جسدي كلما ضربت عجلات سيارتهم مطبّاً .. أو دعست قدم السائق على

الفرامل .. الحمد لله أن استقرّ بي المقام عند إخواني .. ما أسوأ غربة المريض .. أشعر الآن أني بين أهلي وأحبابي .. هتف أبو حسن بكلمات خرجت من ينابيع المودّة والرحمة التي تملأ صدره.

- الحمد لله على سلامتك .. ولا يهمك، نحن أهلك وإخوانك وأحبابك .. لا تحمل همّ .. المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ..

- الحمد لله لا يقلقني الآن سوى شيء واحد .. كيف سأتكلّم مع أهلي؟ .. كيف سينظر إليّ أولادي وأنا هكذا؟ .. عليّ أن أنقل نفسياتهم إلى ما يجعلهم يستوعبون الذي جرى لي . "هتف أبو حسن مطمئناً" : الصبر واحتساب الأجر عند أرحم الراحمين .. أردف جلال مبتسماً: إني بفضل الله عليّ أملك روحاً مرحة سأغدق عليهم من خيرات روحي بما يعوّض عليهم تشوّهات جسدي!! تردّدت الدعوات في الصدور .. قواك الله .. ثبتك الله .. شفاك الله .. صبّرك الله ..

١٩٩٩/٦/٤

وليد الهودلي: "قراصنة الجبّانة"

ليس غريباً أن يمارس السجّان القمع، أما أن يمارسه الطبيب أو الممرّض!! أن تقوم ملائكة الرحمة، كما يسمونها، بدور ملائكة العذاب!! لم أسمع بمثل هذا إلاّ في أقبية التحقيق وما رأيته بأمّ عيني في جبانة الرملة التي تحمل مجازاً اسم مستشفى.

كان كايد "الحُفيش الدرزي" ممرِّضاً على رأس عمله من شاكلته، تستطيع أن تقول عنهم بأنهم شرطة .. سجانين .. أمن .. منتفعين .. متربصين .. قد تحسن الظن وتقول موظّفين، أما أن تقول عنهم ممرضين فهم أبعد ما يكون عن هذا الوصف! رغم أنهم يلبسون "البياض" ويسلّمون الدواء ويقيسون الضغط والحرارة .. يجاملون ويبتسمون وفي نفس الوقت تدور أعينهم على كل صغيرة وكبيرة .. يتجسسون بكل حواسهم، يرأفون على أسيادهم كما يرأفون على أولادهم .. يقدمون بين يدي مولاهم ضابط الأمن أسمى آيات الولاء والخدمة ويتزلّقون له تماماً كالخاتم في الإصبع .. ألغوا أنفسهم فتحوّلوا

إلى أدوات طيعة لا تعرف إلا الاستجابة للأوامر والسير على صـــراط تعليماته الصارمة .. كان الشباب يسمون "كايد" بالسَّلَق لتطابقه مع وظيفة الكلب السَّلَق .

ألقى "السَّلَقُ" القبض على رسالة كانت في جيـــب أحـــد الأسرى المغادرين .. قرأها بإمعان .. وجد فيها ضربة لمولاه .. حلّلها بحاسة شمّه الخبيثة كما تتشمم الكلاب المدربة .. "إنها قصـــة الحمـــام والصياد ..ماذا يقصد بالحمام ومن هـــو الصـــياد؟ أنهـــم الســـجناء والسجان.. تروي القصة عن الحمامة الهزيلة التي استطاعت الخـــلاص من الشبكة التي ضُربت عليها وعلى زميلاتها .. إذن فهـــو يرمـــز إلى عملية هرب من السجن .. إنها فرصتي في الكشف عن هذه النوايا قبل استفحال الأمر .. سأظهر براعتي الأمنية .. سأشرح كـــل تحلـــيلاتي الدقيقة عن هذه القصة الملغومة .."

استلم ضابط الأمن الرسالة مع تحليلاتها العميـــاء .. أصـــدر أوامره "للسَّلَق" بأن يكثّف عيون المراقبة على المرضى المحتجزين فيمـــا يسمى بالمستشفى: "خذوا انتباهكم من كل من يكتب أو يقرأ .. يرقد في هذه الجبانة عشرون مريضاً .. ثمانيـــة ثـــابتون والبـــاقي يأتونـــه ويغادرون.. يأتي المريض من سجنه فيجري له الفحص المطلـــوب أو

المعاينة من قبل الطبيب المختصّ ثم تنتهي ضيافته ويرحل على وجه السرعة.

هذه النقطة التي يلتقي بها المرضى من كلّ السجون لا بد من مراقبتها أمنياً وتشديد الخناق عليها .. ويجب أن يكون المريض مسكيناً لاجئاً إلى هذا المستشفى مجرّداً من كل شيء سوى مرضه .. هذه هي القاعدة التي ينطلق منها أمنهم .

يستفتح المريض منذ دخوله بمقابلة مع ضابط الأمن .. ويتبارد عليه بأسئلة تشبه وجهه البارد .. ولد مائع .. يتحفز خلف مكتبه كطالب مدرسة متذاكي على أقرانه .. يبتسم ابتسامة صفراء يظهر في ثناياها المكر اللئيم والخبث الدفين .. يذكر الناظر إليه بالقصيدة المدرسية "برز الثعلب يوماً في ثياب الواعظين" .. يسأل: عندك مشاكل؟! ألك مطالب؟ أسئلة روتينية تظهر من خلالها الرسالة بوضوح .. نحن لك بالمرصاد حتى ولو كنت في فراش المرض!!

قصّ "السَّلَق" أثر رسالة الحمام والصياد .. عرف من كتبها بسهولة لأنّ المسألة لم تكن في الخفاء .. كتبتها في العلن، وقرأتها على زملائي في الغرفة، ثم بعثتها برسالة مكشوفة .. لم تكن سرّاً فوصل إلى مصدرها بسهولة .. وجّه عيون الرصد عليَّ .. وضعني تحت عدسة المجهر .. لاحظ أنّ جُلّ وقتي في القراءة والكتابة .. ظاهرة غريبة في

المستشفى .. المرضى مُستغرقون في بحر آلام .. بعضهم يهرب منها إلى التلفاز والبعض الآخر إلى التفاعل الاجتماعي .. الوداع والاستقبال وتقصّي أخبار الأصدقاء المنتشرين في كافّة السجون .. أما أن تجد من يقرأ أو يكتب فلا يكون هذا إلا نادراً وفي أوقات قصيرة .. وضع "السَّلَق" نصب عينيه عدة تساؤلات .. "ما هذا الإنسان الذي يقرأ بنهم .." يكتب دون توقف .. كأنه مولد كهربائي .. يحشون رأسه الكثير من الكتب ...يحشو رأسه الكثير من الكتب ..." أذكر أنّي قرأت كتاباً بعد أن طردت من المدرسة .. ما هو سر هذا الرجل؟ حاستي السادسة تقول لي بأن هناك ترقية من ورائه .. سأدعه يكتب على راحته .. وسأنقضّ عليه في الوقت المناسب .. أحمل على كتفي نجمتين، كم من الناس أوقعت في شباكي .. ذاك الشاب الذي طفق يكتب "ويكبسل" وقتما وصل إلى هنا .. في الصباح وضعت يدي على جيب بنطاله المعلق خلسة وهو نائم.. سحبتها كما تسحب الشعرة من العجين، رسائل ما هبّ ودبّ، خلال دقائق كانت بين أيدي الضابط .. "برافو، إطلع درجة" .. درجة تلو الدرجة على أكتاف هؤلاء المخرّبين .. هيه .. هذه هي الحياة كل شاطر وشطارته".

كنت ناظراً للظلام الذي يلف الغرفة ألتجئ إلى جوار الباب.. كان ضوء الممر الخارجي يتسلل من شبك الباب .. أفتح كتابي وأقرأ أو أكتب أو أصلي .. ذات مرّة وجدت خيالاً يتحرك على صفحة كتابي .. رفعت رأسي وإذا "بالسَّلَق" يرقب ما أقرأ .. ابتسمت.. بادلني ابتسامتي بابتسامة زرقاء كالحة .. خاطبني بلسانه .. حَمَل .. يحمل قلب ذئب .. هذا الضوء يتعب عينيك!! ريّح نفسك والصباح رباح .. هززت رأسي ولم أجب .. يُتابع .. ماذا تقرأ؟! "أجبت باقتضاب حتى يفهم استيائي .. رواية .. أتحب أن تقرأها .. ناولته إياها .. تفاجأ من هذا الردّ .. تصفحها بأطراف أصابعه .. زمّ شفتيه .. أعادها مرة أخرى، استرق النظر فرآني غارقاً في الكتابة .. بعد دقيقتين كان ضابط الأمن يقف على الباب فوق رأسي .. رماني بأسئلته الباردة وانسحب بهدوء ..

ضابط الأمن يسأل ممثل المرضى .. لماذا يتناوبون في هذه الغرف على الباب؟ رددت عليه ببساطة .. إنهم يُصَلُّون أن يقرأون على ضوء الممر الخارجي . إنتابني شعور بأنهم قد بيتوا أمراً .. كنت أيامها على وشك الانتهاء من هذه المجموعة القصصية .. مجموعة سجلت فيها بعض ما شاهدته من آلام وآهات هؤلاء المعذبين في هذه الجبانة .. محكوم عليهم فيها بالموت مع وقف التنفيذ .. أو موت

بالتقسيط المتعب .. حبذا لو كان موتاً مريحاً على قاعدة " فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة فليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته"..

اتفقت مع أحد الإخوة بعد انتهائي مباشرة من كتابة القصة الأخيرة على أن ننسخ نسخة ثانية من باب الاحتياط، باشرنا العمل على طاولة في إحدى الغرف هو ينسخ وأنا أوقف .. داهمنا صوت "السَّلَق" على حين غفلة .. وكأنه يعوي على فريسته .. "تفتيش .. اتركوا كل شيء في مكانه" .. نظرت إلى الوراء .. وجدته متمترساً بثلة من جنود "البوسطة" المعروفين بشراستهم .. هكذا فجأة ينظر "كايد" الممرض، الحمل الوديع، موزع الرحمة والدواء إلى شرطي شرس يصبُّ جحيم حقده الدَّفين على رؤوس ضحاياه: المرضى، العاكفون على آلاهم .. لم يكن لي مفرّ حتى أعطي الانطباع بأن ما لديّ في غاية الأهمية .. تركتها ببساطة وخرجت .. كنت حينها أتمزق وكأنك تنزع طفلاً من بين يدي أمه .. قلبّوا كل شيء . المرضى وأغراضهم .. لم يتركوا شيئاً في مكانه إلا نفلوه وبددوا شمله .. خلطوا الحابل بالنابل .. حشرونا في غرفة الطعام حتى انتهوا من عبثهم.. عاثوا في أمتعة المرضى فساداً .. جلست على أعصابيّ الدماء تفور فيّ ودم المرضى .. الضغط يرتفع ويشتدّ .. البخاخات تسارع بها الأيدي إلى أفواه الذين يعانون من آلام صدورهم .. الغضب يكتسح

ساحات النفوس، العيون ترقب ساحة الفراغ من هذا التفتيش!! فتشوا أجسادنا بعد الفراغ من أغراضنا تفتيشاً دقيقاً .. بالماكنة الإلكترونية، بأيديهم الشيطانية .. شرّ البليّة ما يضحك .. كانوا يلبسون على أيديهم القفّازات البلاستيكية الطبية .. أيدي إجراميّة يخافون عليها من التلوّث؟!

عدنا إلى ملابسنا المبثوثة نُضمّد جراحها ونلمّ شعثها .. أعدنا إليها، ووضعناها في خزائنها .. كانت تشكو بصمت .. وكان المرضى يشتمون ويسبّون، سارعت بدوري إلى دفاتري .. كانت الفاجعة الكبرى بانتظاري .. صادرها القراصنة .. قراصنة الفكر والكلمة .. قراصنة المشاعر .. والأحاسيس، قتلة الأدب والذوق .. قتلة الحب والحياة ..

وقفنا أمام المعادلة المُرّة .. " لا يمكن لشرطة العذاب أن تقوم بالطب والدواء كما لا يمكن للشياطين أن تأخذ دور الملائكة" ..

الآن تسأل وتخضع لمحاكم التفتيش .. تحت رحمة من لا يرحم.. تعكرت أجواء نفسي ونفوس المرضى واجتاحنا الهم والغم من كل جانب .. حاولت معها تلطيفاً بالحوقلة والاحتساب عند الحسيب والوكيل الذي لا يغفل عما يعمل المجرمون.

باءت كل محاولات إرجاعها بالفشل .. لم تنفع معهم الطرق الدبلوماسية الهادئة بداية الأمر، و لم تنفع المطالبة شديدة اللهجة والتهديد باللجوء إلى المحاكم نهاية الأمر ما العمل؟! شحنت همتي بعد أن رجعت إلى سجني وخرجت من براثنهم المسمومة حاولت تجميع مشاعري التي كانت ملتحمة مع مشاعر المرض .. رفعت شراع قلمي وبدأت أكتب وأستعيد أفكاري من جديد ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفهرس

مقدمة ٧

محمد أبو هدوان: "الشيخ المحتسب" ٩

عمر الخطيب: "المشعوذة" ١٩

ياسر المؤذن: "واحة الديمقراطية" ٣٣

جمعة إسماعيل: "صخرة في صدره" ٤٩

علي شلالدة: "مالها إلا الله" ٥٧

نضال أبو عليا: "أربع ساعات" ٦٥

فتحي زقوت: "سائق الحافلة" ٧٥

علي عباس البيّاتي: "عراقي في سرداب السّبع" ٨٧

علاء الدين البازيان: "زيارة إلى بحيرة طبريّا" ٩٧

ربحي هرشة: "أمام الضمير المفقود" ١٠٧

جلال رمّانة: "من أصحاب الأخدود" ١١٣

وليد الهودلي: "قراصنة الجبّانة" ١٢٣

صدر عن بيت الشعر في فلسطين

١.	محمد حسيب القاضي	السدى قطرة قطرة
٢.	نضال برقان	مصاطب الذاكرة
٣.	سلمان ناطور	هل قتلتم أحداً هناك
٤.	عيسى أبو شمسية، عبد الكريم أبو خشان، محمود العطشان	محاورات عقل (عن عبد اللطيف عقل)
٥.	غريب عسقلاني	جفاف الحلق ومرارة اللسان
٦.	سمير شحادة التميمي	إلى ولدي مع الاعتذار
٧.	جهاد هديب	ما يمكن خيانته ويسمى الألم
٨.	مختارات (١٣) شاعر شاباً/ة فلسطيني/ة	ضيوف النار الدائمون
٩.	بكر أبو بكر	لَمَ لا
١٠.	المتوكل طه	أو كما قال (مختارات)
١١.	عز الدين المناصرة	قصيدة النثر
١٢.	المتوكل طه	عباءة الورد
١٣.	عزت الغزاوي	جنة مضيئة
١٤.	المتوكل طه	هذا ما لزم - رسائل إبراهيم طوقان إلى فدوى
١٥.	سعود الأسدي	دعسة بنت النبي
١٦.	علي الخليلي	خريف الصفات
١٧.	محمد حلمي الريشة	زفرات الهوامش
١٨.	ريحي محمود	عودة المسافر
١٩.	عثمان حسين	له أنت
٢٠.	علاء الدين كاتبة	أحلام السنونو
٢١.	صخر أبو نزار	نشيد الذاكرة

٢٢.	محمود أبو هشهش	وجع الزجاج
٢٣.	عبد الله عيسى	قيامة الأسوار
٢٤.	عادل الأسطة	دراسة في جدارية محمود درويش
٢٥.	عبد الناصر صالح	فاكهة الندم
٢٦.	زاهر الجوهر	دراسة في شعر المعتقلات
٢٧.	وليد الشيخ	حيث لا شجر
٢٨.	غادة الشافعي	المشهد يخبئ صهيلاً
٢٩.	أمجد ناصر	مختارات شعرية
٣٠.	يوسف الحمود	حجر الوحش
٣١.	محمد ضمرة	القدس أرض السماء
٣٢.	سليمان دغش	زمان المكان
٣٣.	د. حسين البرغوثي	ما قالته الغجرية
٣٤.	د. حسين البرغوثي	الضوء الأزرق
٣٥.	حسن النواب	شريعة النواب
٣٦.	خضير ميري	صحراء بوذا
٣٧.	زهور دكسن	الغدير الأخير
٣٨.	طالب عبد العزيز	ما لا يفضحه السراج
٣٩.	عبد الزهرة زكي	كتاب اليوم .. كتاب الساحر
٤٠.	عبد المطلب محمود	بعض ما يمكن أن ..
٤١.	منذر عبد الحر	قرابين العش الذهبي
٤٢.	لطفية الدليمي	خسوف برهان الكتبي
٤٣.	مجموعة شعراء عراقيين	انساغ القلب
٤٤.	عادل عبد الله	بمناسبة وجودي حياً
٤٥.	أشرف الزغل	نوم كما أرى
٤٦.	تميم البرغوثي	ميجانا
٤٧.	بشير شلش	سماوات واطئة

٤٨.	طارق الكرمي	ضحى الوحيد
٤٩.	وليد الهودلي	مدفن الأحياء